البلاغة القرآنية
في
آيات التبشير

دراسة بلاغية تطبيقية

الدكتورة
فايزة عثمان

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: الآية ٣٢] ٠

أما بعد

فقد جاءت كلمات التبشير فى القرآن الكريم فى جميع ما تتصرف فيه، جاءت على حد واحد من الإعجاز فى حسن النظم، وبديع التأليف، لا تفاوت فيها ولا نزول عن الدرجة العليا من الفصاحة والمنزلة السامية فى البلاغة. فلا نجد كلمة تنشز عن أختها، أو تشذ عن سابقتها أو لاحقتها فى أداء الغرض وبيان المقصود، فكلمات القرآن منسقة، وألفاظه فى الترتيب والتأليف تعلو كلام البشر ، ولها نغم يتذوقه كل فاهم، وأثر يدركه كل قارئ، ولا يستطيع وصفه ولا تعريفه٠

فإذا وردت الكلمة فى مقام الإنذار كانت إرعادا، وإن جاءت فى سياق التبشير كانت نسيما واستراحا[١] قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[٢]٠

و"التبشير وعكسه الإنذار من المقامات التى يبرز فيها جلال المبشر والمنذر ... لأن فى ذلك بعث الاطمئنان فى نفس السامع، أو إثارة الرعب فى قلبه ... والتبشير والإنذار معان تستدعى أن توثق

---

(١) صفاء الكلمة: د/ عبدالفتاح لاشين، ص٢٣٩ (بتصرف)٠
(٢) سورة الإسراء الآية ٨٨ ٠

لإراحة النفوس واطمئنان القلوب، ولتمليك الرعب والفزع مشاعر الظالمين"[١].

لذلك فإنه يجب فهم ألفاظ القرآن الكريم فهما صحيحا، للرد على المطاعن التى توجه للغة العربية والقرآن، واستعمال اللفظ اللائق به هو سر من أسرار إعجاز القرآن، وسبب من أسباب حفظه، فلا يتبدل ولا يتغير، وإنما يظل محفوظا.

وقد ورد التبشير فى القرآن الكريم على قسمين: قسم ورد بلفظ التبشير الصريح أو مشتقاته . وقسم لم يرد بلفظ التبشير صريحا وإنما جاء التبشير فى الآيات ضمنا. كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴾[٣]، وغير ذلك .

وقد اقتصر بحثى على القسم الأول وهو: التبشير باللفظ الصريح أو مشتقاته، وبيان بلاغته فى القرآن الكريم ، وقد دعانى بعد توفيق الله سبحانه إلى اختيار هذا الموضوع أمور منها:

١ - أردت أن يكون عملى هذا إضافة جديدة إلى البلاغة القرآنية، واندفعت إلى هذا البحث بعقيدة دينية تمكنت من نفسى، فجعلت خدمة القرآن الكريم واجبى وهدفى، الذى استعذبت بذل كل مجهود فى سبيله .

٢ - تمكين كتاب الله وبلاغته فى القلوب وأداء لحق العربية.

---

(١) تعبير الحق عن ذاته : د/ عزالدين على السيد، ص٢٣، ٢٥ .
(٢) سورة التوبة الآية ٧٢ .
(٣) سورة الرعد الآية ٢٩ .

٣ - فهم أسرار لغتنا العربية، لغة القرآن الكريم ٠

٤ - أن للقرآن الكريم آفاقا عالية من البلاغة ينبغى تفهمها بدقة، فكان الاهتمام متجها إلى العثور على بحث وثيق الصلة بأسلوب القرآن الكريم ونظمه٠

٥ - أن التبشير من أعظم أساليب الترغيب، والرسول ﷺ أمرنا بالتبشير فى قوله ﷺ : "بشروا ولا تنفروا"(١)٠

٦ - أن التبشير من مهمة الرسل والأنبياء، ويتبين ذلك للمتأمل لآيات القرآن الكريم ٠

لذلك عزمت على أن أجعل التبشير موضوعا لبحثى، وقد أمرنا سبحانه بتدبير كتابه٠

خطة البحث:

انتظمت هذه الدراسة فى : مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، وفهرس المراجع، وفهرس الموضوعات٠

المقدمة: اشتملت على أهمية الموضوع ، وسبب اختياره، وخطة البحث والمنهج٠

والتمهيد: تناول معنى التبشير فى المعاجم العربية ، وحصر مادة التبشير فى القرآن ٠

والمبحث الأول: لبيان بلاغة التبشير فى السياق القرآنى٠
والمبحث الثانى: جاء عن التبشير والتهكم ٠
والمبحث الثالث: عن التبشير والظواهر الكونية٠
ثم الخاتمة ، ثم المراجع وفهرس الموضوعات٠

---

(١) صحيح البخارى كتاب العلم باب (١١) ٠

منهج الدراسة

كان منهجى فى هذا البحث قائما على استخراج خصائص علوم البلاغة (المعانى والبيان والبديع) من آيات التبشير فى القرآن الكريم. فهذه الدراسة دراسة بلاغية تطبيقية لبيان الإعجاز البيانى البلاغى المتمثل فى أسلوب القرآن ونظمه وتراكيبه اللغوية.

فهذا هو الإعجاز الذى وقع به التحدى . وفقنا الله لإدراك بلاغة القرآن والوقوف على دقائق آياته إنه سميع مجيب.

وبقى أن أقول إن هذه الدراسة لم تحقق مما طمحت إليه إلا قليلا وإنما يبلغ الإنسان طاقته، ولا حول ولا قوة إلا بالله ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ [النمل/ ١٩].

تمهيد
معنى التبشير فى المعاجم العربية

معنى التبشير:

اتسع مدلول لفظ (التبشير) فى المعاجم اللغوية، فهو من: (بشر) بالخبر ــ بشرا: فرح به وسر . وبالشىء: استبشر به. والاسم: البشرى، ويقال: بشرت فلانا أبشره تبشيرا ٠

يقول صاحب معجم مقاييس اللغة[١]:

"وذلك يكون بالخير، وربما حمل عليه غيره من الشر، وأظن ذلك جنسا من التبكيت. والبشارة المطلقة لا تكون إلا بالخير، وإنما تكون بالشر إذا كانت مقيدة كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران ٢١، والانشقاق ٢٤] ، فالتبشير يكون بالخير والشر، ويغلب فى الخير ٠

وبشرته وبشرته: أخبرته بسار بسط بشرة وجهه. وبين هذه الألفاظ فروق، فإن بشرته عام، وأبشرته نحو أحمدته، وبشرته على التكثير ٠

واستبشر إذا وجد ما يسره من الفرح، قال تعالى: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران ١٧٠] ٠

---

(١) العلامة: أحمد بن فارس ج١ ص١٣٢ (بتصرف) ط١، بيروت، لبنان ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م، وراجع المفردات فى غريب القرآن لأبىالقاسم الحسن المعروف بالراغب الأصفهانى، ج١ ص٦١ وما بعدها ط١، مكة المكرمة ـ الرياض ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م، والمعجم الوسيط ج١ ص٥٩، ٦٠، مجمع اللغة العربية ط٣ ـ ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م٠

ويقال للخبر السار: البشارة والبشرى ، قال تعالى: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [يونس ٦٤]، والبشارة: الخبر السار لا يعلمه المخبر به٠

والبشير: المبشر الذى يبشر القوم بأمر خير أو شر، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ ﴾ [يوسف ٩٦]٠

وبشره وأبشره فبشر به، قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ [يس ١١]٠

وقال: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة ٣]٠

يقول الراغب الأصفهانى(١): "فاستعارة ذلك تنبيه أن أسر ما يسمعونه الخبر بما ينالهم من العذاب، وذلك نحو قول الشاعر: تحية بيتهم ضرب وجيع"٠

ويقول أبشرت الأرض إذا أخرجت نباتها، أخرجت أول نبتها٠

والمبشرات: الرياح التى تهب بالسحاب وتبشر بالغيث، وفى التنزيل العزيز: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ ﴾ [الروم ٤٦] ٠

والبشارة: الجمال، ويسمى ما يعطى المبشر : بشرى وبشارة(٢)٠

---

(١) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ج١ ص٦١ ٠
(٢) المرجع السابق: ج١ ص٦٢ (بتصرف) ٠

(حصر مادة التبشير فى القرآن الكريم)

ورد لفظ (التبشير) ومشتقاته فى القرآن الكريم أربعا وثمـــانين مرة[١].

فورد بلفظ "الفعل الماضى" تسع مرات:

أبشرتمونى: مرة واحدة .

قـــال تعـــالى: ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ [الحجر ٥٤].

بشرناك: مرة واحدة .

قال تعالى:﴿ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴾[الحجر ٥٥].

بشرناه: مرتين.

قال تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ [سورة الصـــافات ١٠١] ، و﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الصافات ١١٢] .

فبشرناها: مرة واحدة .

قال تعالى: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ ﴾ [هود ٧١] .

بشروه: مرة واحدة.

قـــال تعـــالى: ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ [الذاريات ٢٨].

بشر: ثلاث مرات .

قـــال تعـــالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [النحل ٥٨]، ﴿ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ﴾ [النحل ٥٩] .

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾ [الزخرف ١٧] .

وورد بلفظ "الفعل المضارع" ست عشرة مرة :

لتبشر: مرة واحدة .

قال تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ [مريم ٩٧] .

تبشرون: مرة واحدة .

قال تعالى: ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ [الحجر ٥٤] .

نبشرك : مرتين.

قال تعالى: ﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ [الحجر ٥٣].

﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ ﴾ [مريم ٧].

يبشر: ثلاث مرات.

قال تعالى: ﴿ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء ٩].

﴿ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ [الكهف ٢].

﴿ ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [الشورى ٢٣].

يبشرك : مرتين .

قال تعالى: ﴿ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا ﴾ [٣٩ آل عمران].

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾[٤٥ آل عمران] ٠

يبشرهم: مرة واحدة.

قال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾ [التوبة ٢١] ٠

يستبشرون : ست مرات .

قال تعالى: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ ﴾ [١٧٠ آل عمران] ٠

﴿ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ ﴾ [١٧١ آل عمران] ٠

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [١٢٤ التوبة] ٠

﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [٦٧ الحجر] ٠

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [٤٥ الزمر] ٠

وورد بلفظ "فعل الأمر" عشرين مرة :

بشر: تسع عشرة مرة .

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ ﴾ [٢٥ البقرة] ٠

﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[١٥٥البقرة] ٠

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٢٢٣البقرة] ٠

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [١٣٨ النساء] ٠

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [٣ التوبة] ٠

﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [١١٢ التوبة] ٠

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾ [٢ يونس].

﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [٨٧ يونس].

﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾ [٣٤ الحج].

﴿لِّتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۚ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [٣٧ الحج].

﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا﴾ [٤٧ الأحزاب].

﴿وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ﴾ [١٧ الزمر].

﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [١٣ الصف].

﴿كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [٧ لقمان].

﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾ [١١ يس].

﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [٨ الجاثية].

﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [٢١ آل عمران].

﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [٣٤ التوبة].

﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [٢٤ الانشقاق].

أبشروا: مرة واحدة.

قال تعالى: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [٣٠ فصلت].

استبشروا: مرة واحدة.

قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ﴾ [١١١ التوبة].

وورد مصدرا ثمانى عشرة مرة:

فبشرا: ثلاث مرات ٠

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ﴾ [٥٧ الأعراف] ٠

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ﴾ [٤٨ الفرقان]٠

﴿ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ﴾ [٦٣ النمل] ٠

بشرى: أربع عشرة مرة ٠

قال تعالى: ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٩٧ البقرة] ٠

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ﴾ [١٢٦ آل عمران]٠

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ﴾ [١٠ الأنفال] ٠

﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [٦٤ يونس]٠

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [٦٩ هود]٠

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [٧٤ هود]٠

﴿ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ﴾ [١٩ يوسف]٠

﴿ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [٨٩ النحل]٠

﴿ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[١٠٢ النحل]٠

﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾[٢٢ الفرقان] ٠

﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٢ النمل] ٠

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [٣١ العنكبوت].

﴿وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [١٧ الزمر].

﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [١٢ الأحقاف].

بشراكم: مرة واحدة.

قال تعالى: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [١٢ الحديد].

وورد بلفظ بشير: تسع مرات:

قال تعالى: ﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٌ﴾ [١٩ المائدة].

﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [١٩ المائدة].

﴿إِنْ أَنَآ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [١٩٩ الأعراف].

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [٢ هود].

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [٩٦ يوسف].

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [١١٩ البقرة].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [٢٨ سبأ].

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [٢٤ فاطر].

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [٤ فصلت].

وورد اسم فاعل إحدى عشرة مرة:

مبشرا: خمس مرات:

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [١٠٥ الإسراء].

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [٥٦ الفرقان].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [٤٥ الأحزاب].

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [٨ الفتح].

﴿ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ ﴾ [٦ الصف].

مبشرين: أربع مرات:

قال تعالى: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [٢١٣ البقرة].

﴿ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ ﴾ [١٦٥ النساء].

﴿ وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ ﴾ [٤٨ الأنعام].

﴿ وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ ﴾ [٥٦ الكهف] .

مبشرات: مرة واحدة .

قال تعالى: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ ﴾ [٤٦ الروم].

مستبشرة: مرة واحدة.

قال تعالى: ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ۝٣٨ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ﴾ [٣٨، ٣٩ عبس].

المبحث الأول
بيان بلاغة التبشير فى السياق القرآنى
(أساليب التعبير عن التبشير من خلال النص القرآنى)

الأصل فى التعبير أن يكون بالقدر الذى يتطلبه المعنى، وقد يستدعى المقام ذكر المسند إليه أو المسند أو الاستغناء عن أحدهما لغرض بلاغى، ولا يقتصر الذكر والحذف عليهما، بل يكون الذكر والحذف من متعلقات الفعل، وأهم المتعلقات هو المفعول به للفعل المتعدى، فهو يحتاج إلى مفعول به أو أكثر، وإننا إذا أسندنا الفعل إلى الفاعل كان غرضنا أن نفيد وقوعه منه لا أن نفيد وجوده فى نفسه فقط، كذلك إذا عدى إلى المفعول كان الغرض إفادة وقوعه عليه، فالتعبير البلاغى دقيق فى بنائه فقد نقتصر فى الجملة على الفعل وأحيانا تمتد إلى الفاعل، وأحيانا تمتد إلى المفعول.

"فإذا قيل: فلان يعطى، كان هذا لمن يجهل إعطاءه، وإذا قيل: فلان يعطى الدنانير، كان هذا لمن يعلم إعطاءه ويجهل أنه يعطى الدنانير"(١).

ومن خلال النظر فى آيات تبشير المؤمنين يتبين لنا أن المفعول وهو ــ المؤمنون ــ أحيانا يذكر ومه المبشر به، وأحيانا يذكر ويفهم المبشر به ضمنيا من الكلام السابق ، ثم إن المبشر به المذكور يتنوع ولكل ذلك أسرار ولطائف نستظهرها فيما يأتى:

١ـ آيات تبشير المؤمنين بالجنة والأجر الحسن والفضل الكبير:

---

(١) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح فى علوم البلاغة للشيخ عبدالمتعال الصعيدى ج١ ص٢١٦ ، ط٢ .

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ [البقرة آية ٢٥].

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس آية ٢].

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء آية ٩].

قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف آيتان ١، ٢].

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب آية ٤٧].

قال تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة آية ٢٢٣].

قال تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّآئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة آية ١١٢].

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس آية ٨٧].

قال تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف آية ١٣].

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [يونس الآيتان ٦٣، ٦٤].

قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة آية ٩٧].

قال تعالى: ﴿ طسٓ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل آيتان ١، ٢].

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [الحديد ١٢].

التطبيق البلاغى لآيات التبشير

(١) تبشير المؤمنين بالجنات

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [سورة البقرة الآية ٢٥].

فى هذه الآية الكريمة نرى ألوانا من النعيم منها ثمار الدنيا التى وإن تشابهت فى الشكل مع ثمار الجنة إلا أنها مختلفة الطعم والمذاق وتزداد سعادة المؤمنين حين يخيل إليهم أنهم رزقوا هذا الطعام من قبل، فإذا به ألذ وأحلى مذاقا، هذا إلى جانب الأزواج المطهرة.

وجاء الخطاب فى صيغة الأمر (بشر) للنبى ﷺ ويجوز أن يكون لكل أحد أى لكل من يتأتى منه التبشير ولا يأمر بذلك واحدا بعينه، وذلك لعظمة وفخامة شأن المأمور به، فهذا جدير بأن يتولى التبشير كل من يقدر عليه .

والخطاب بالعموم فى صيغة الأمر (وبشر) أحسن لأنه يدل على فخامة شأن المأمور به وأجزل من أن يأمر بالتبشير واحدا بعينه.

وجملة (وبشر) معطوفة على مجموع الجمل السابق ذكرها فى وصف عقاب الكافرين، فليس هو عطفا لجملة معينة على جملة معينة يطلب معه تناسب بين الجملتين فى الخبرية والإنشائية من عطف مجموع على مجموع، أى مجموع أخبار ثواب المؤمنين على مجموع أخبار عقاب الكافرين.

ولعل هذا ما أراده الزمخشرى من قوله: "فإن قلت: علام عطف هذا الأمر ولم يسبق أمر ولا نهى يصح عطف عليه؟ قلت: ليس الذى اعتمد بالعطف هو الأمر حتى يطلب له مشاكل من أمر أو نهى يعطف عليه؛ إنما المعتمد بالعطف هو جملة وصف ثواب المؤمنين، فهى معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين، كما تقول: زيد يعاقب بالقيد والإرهاق، وبشر عمرا بالعفو والإطلاق"(١) .

وما مثل به الزمخشرى من الجملتين الموجبة العطف كانتا مختلفتين بالخبرية والإنشائية، فقد جوز عطف الإنشاء على الإخبار، ولم يجعل الخبر بمعنى الإنشاء أو العكس، بل أريد به معنى المجموع كما ذكر ذلك السيد الشريف وجعل لهذا النوع من العطف لقب عطف القصة على القصة، أى المعتمد بالعطف هو مجموع قصة بين فيها ثواب المؤمنين، على مجموع قصة بين فيها عقاب الكافرين(٢) .

ويقول الدكتور محمد أبوموسى: "الزمخشرى لا يمنع عطف الإنشاء على الخبر ما دام المعتمد بالعطف هو مضمون الجمل لا الألفاظ، وحينئذ لا يتطلب المشاكلة بين الألفاظ وإنما تطلب المناسبة بين المعانى، وهذا موضع دقيق يحسن تأمله"(٣) فالزمخشرى يرى أنه ليس من اللازم أن تتناسب الجملتان خبرا وإنشاء، ولا يمنع أن يعطف الإنشاء على الخبر إذا كان المعتمد بالعطف مضمون الجمل.

وجوز الزمخشرى أن يكون قوله تعالى: (وبشر) معطوفا على قوله تعالى: (فاتقوا) يقول : "ولك أن تقول: هو معطوف على قوله:

---

(١) الكشاف للزمخشرى ، ج١ ، ص١٠٤ .
(٢) ينظر حاشية السيد الشريف على المطول، ص٢٦٣، والتحرير والتنوير ج١ ص٣٥٠ .
(٣) البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى، د/ محمد أبوموسى، ص٦٣١ .

(فاتقوا) ، كما تقول: يا بنى تميم احذروا عقوبة ما جنيتم، وبشر يا فلان بنى أسد بإحسانى إليهم"[١].

وهذا الرأى ضعيف لأن الأمر هنا لم يقترن بالنداء، فقد قرر علماء النحو امتناع عطف أمر مخاطب على أمر مخاطب إلا إذا اقترن بالنداء نحو: قم يا زيد واكتب يا عمر، وهذا لا نداء فيه، وإنما خص النحاة النداء لأنه أظهر قرينة[٢].

والتبشير أخص من الخبر، فالتبشير الإخبار بالأمر المحبوب، وقد قيد بعض العلماء معنى التبشير بأن يكون المخبر غير عالم بذلك الخبر[٣].

هذا وإننا لنرى فى الآية أسرارا شتى كذكر اسم الموصول، وتعليقه بالتبشير فى قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وذلك للتنصيص على اتصافهم بما فى حيز الصلة من الإيمان والعمل الصالح، وجعل صلة الموصول فعلا، لحث المخاطبين بالتقوى والإيمان، فهم الذين صدقوا الله ورسوله ووعد الله ووعيده.

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ (الصالحات): جمع صالحة، والمراد بالصالحات: الأعمال الحسنة المستمدة من الكتاب والسنة والعقل . واللام فى (الصالحات) للجنس، والجمع لإفادة أن المراد بها جملة من الأعمال الصالحة التى أشير إليها فى مطلع السورة وفى عطف العمل على الإيمان دلالة على تغايرهما، وإشعار بأن مداد استحقاق البشارة

---

(١) تفسير الكشاف ، ج١ ، ص١٠٤
(٢) انظر تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، ج١ ص٣٥٢
(٣) السابق نفسه .

مجموع الأمرين، فإن الإيمان أساس والعمل الصالح كالبناء عليه، ولا غناء بأساس لا بناء فيه[١].

ووجه الإتيان بالجمع بعد (أل) فى الصالحات مع أن المفرد قد يغنى غناءها وضحه الزمخشرى عندما فرق بين لام الجنس الداخلة على المفرد والداخلة على الجمع بقوله: "فإن قلت: أى فرق بين لام الجنس داخلة على المفرد وبينها داخلة على الجمع؟ قلت: إذا دخلت على المفرد كان صالحا، لأن يراد به الجنس إلى أن يحاط به، وأن يراد به بعضه إلى الواحد منه، وإذا دخلت على المجموع، صلح أن يراد به جميع الجنس، وأن يراد به بعضه لا إلى الواحد منه"[٢].

فلعله إذا كانت قرينة الاستغراق ظاهرة من لفظ أو سياق، أتت صيغة المفرد، فهو الأصل الأخف، وإن كانت قرينة الاستغراق خفية أو مفقودة، استعملت صيغة الجمع، فيصير الجمع قرينة على الاستغراق.

و(جنات) جمع جنة وهى اسم لدار لثواب، وحسن جمع الجنة لاشتمالها على جنان كثيرة متعددة، والجنة فى الأصل: من جنة إذا ستره، كأنها سترة واحدة لكثرة التفافها التفاف أشجارها بعضها ببعض حتى كثر ظلها، وذلك من وسائل التنعم والترفه عند البشر[٣]، وتنكيرها: للتكثير والتعظيم.

وحيث ذكرت الجنة فى القرآن، فإنها تجئ تارة مجموعة وتارة غير مجموعة ، والنار لم تقع إلا مفردة، والوجه فى ذلك أنه لما

---

(١) انظر تفسير أبىالسعود، ج١ ، ص٦٨ .
(٢) الكشاف، ج١، ص١٠٥ .
(٣) التحرير والتنوير، ج١، ص٣٥٣ (بتصرف) .

كانت الجنات مختلفة الأنواع، حسن جمعها وإفرادها ولما كانت النار مادة واحدة، أفردت باعتبار الجنس"[١].

واللام فى (لهم) للاختصاص، وتقديم الخبر هنا آكد من تقديم جنات، ولقرب عود الضمير على: الذين آمنوا، ففيه سرور وغبطة وبشرى للسامع، ولأن الاسم نكرة فقد تعين تقديم الخبر الجار والمجرور كما هو معلوم.

أما قوله تعالى: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فهو كناية عن الخصب وإشعار بالرخاء، والجرى: أى السرعة الشديدة فى المشى، والأنهار: جمع نهر، بفتح الهاء وسكونها، واللغة العالية "النهر" بفتح الهاء[٢].

وإسناد فعل الجريان إلى الأنهار إسناد مجازى مجاز عقلى، لأن الذى يجرى الماء لا الأنهار، ولما كان النهر مكانا للجريان صح إسناد الفعل إليه، والعلاقة مكانية، وهذا فيه من المبالغة ما يخيل أن الأنهار هى التى تجرى، وبلاغة المجاز ــ كما يقول الدكتور عبدالفتاح لاشين: "المبالغة فى كثرة الماء وشدة فيضانها، وكأن محلها الذى يجرى، وكأن الجرى قد تجاوز الماء إلى مكانه"[٣].

ولهذا توصف جنات العلى القدير بذلك ويبشر ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، وتعريف الأنهار: قد يراد الجنس، أو يراد أنهارها، فعوض التعريف باللام من تعريف الإضافة فإذا أريد بالجنات الأرض المشتملة عليها فلابد من تقدير

---

(١) بلاغة القرآن والحديث د/ عبدالقاهر حسين، ص١٢٩ طبعة الفاروق الحديثة.

(٢) انظر الكشاف، ج١، ص١٠٧ .

(٣) معانى التراكيب د/ عبدالفتاح لاشين، ج١ ، ص٩٥ ـ ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

مضاف أى من تحت أشجارها، ونبه الزمخشرى على أن الأنهار نعمة مستقلة جديرة بأن لا يكون التنعم بها تبعا للمتنعم بالجنات[١].

وقوله تعالى: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ إطناب بطريق التتميم، فقد أتى بالجار والمجرور، لتصوير وزيادة إحضار حالة جرى الأنهار، فالأنهار لا تجرى من فوق، فقوله: (من تحتها) جىء به لقصد الترغيب. وفى قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة الآية ٢٥].

(كلما) ظرف زمان، أشربت معنى الشرط وهى مقيدة بما يدل عليه فعل الشرط، وفيه حكاية لصفة ثمار الجنة وليس فيه قصد امتنان[٢] فيكون معنى قوله: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾، أن ثمار الجنة متحدة الشكل مختلفة الطعم، و(من ثمره) من: لابتداء الغاية أى رزق الجنة ابتدئ من ثمرة، والمقصود من قوله تعالى: ﴿هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾، هذا مثل الذى رزقناه من قبل وشبهه كما وضح ذلك الزمخشرى بقوله: "فإن قلت: كيف قيل: ﴿هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ وكيف تكون ذات الحاضر عندهم فى الجنة هى ذات الذى رزقوه فى الدنيا؟ قلت معناه: هذا مثل الذى رزقناه من قبل وشبهه بدليل قوله: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾"[٣].

ثم يقولك "وهذا كقولك: أبو يوسف أبوحنيفة، تريد أنه لاستحكام الشبه كأن ذاته ذاته"[٤] يفهم من كلام الزمخشرى أن قوله

---

(١) انظر الكشاف:ج١، ص١٠٧، والتحرير والتنوير: ج١ ص٣٥٥ .
(٢) انظر التحرير والتنوير: ج١ ص٣٥٦ .
(٣) الكشاف: ج١ ، ص١٠٨ .
(٤) الكشاف: ج١ ، ص١٠٩ .

تعالى: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ تشبيه بليغ، فهو محذوف الوجه والأداة، المشبه هو: رزقهم الذى يرزقهم الله به فى الجنة، والمشبه به: رزق آخر رزقوه ﴿مِن قَبْلُ﴾، ولكن هل المشبه به من أرزاق الدنيا أو من أرزاق الآخرة؟

والجواب: أن المشبه به: رزق الدنيا بدليل أن قوله: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ يبين أنه لا يكون لهم رزق فى الجنة قبل المرة الأولى حتى يشبه ذلك به، فوجب أن يكون المشبه به أرزاق الدنيا، وحدوث المشابهة المراد منها: تشابهها فى المنظر، أى الثانى كأنه الأول، كأنهم قالوا: هذا عين ما رزقناه فى الدنيا مما يوضح التشبيه البليغ فى الآية المحذوف الوجه والأداة، وهو أقوى مراتب التشبيه وأبلغه.

والتشبيه جاء مفردا وكان مناسبا لحالهم، فهم ــ المؤمنون ــ قد عبدوا الله وحده وأخلصوا له سبحانه ، ولذلك عبروا بلفظ (الذى) مبالغة منهم حينما رأوا الثمار فى الجنة أشبهت ما ألفوه فى الدنيا فزاد فرحهم، والتعبير بـ(هذا) إيجاز بليغ، إيجاز قصر إذ يدل لفظه على محتملات عديدة ويندرج تحته ذكر ما رزقوه فى الدنيا والآخرة، وهذا إشارة للقريب تدل على القرب، فكأنه يشير إلى ما هو أمام عيونهم قريب منهم بين متناول أيديهم . (من قبل) أى من قبل دخول الجنة، والضمير فى (أتوا به) يعود إلى الرزق، والمعنى أن ما يرزقونه من ثمرات الجنة يأتيهم مشابها لثمار الدنيا مع اختلاف الطعم والله أعلم.

لفت الزمخشرى إلى أن ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ جملة معترضة يقول: "فإن قلت: كيف موقع قوله: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ من نظم الكلام؟ قلت: هو كقولك: فلان أحسن بفلان ونعم ما فعل ... ومنه

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۖ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾[١]، وما أشبه ذلك من الجمل التى تساق فى الكلام معترضة للتقرير"[٢].

فالجملة معترضة للتقرير والتوكيد، تقرير قولهم السابق وتأكيده، ومسلك الزمخشرى أن الاعتراض قد يقع فى آخر الكلام، وهذا ما يسميه البلاغيون تذليلا، ويقول الشهاب عما مثل به الزمخشرى: "هذا على تجويز الاعتراض فى آخر الكلام والأكثرون يسمونه تذليلا ... وهو أن يعقب الكلام بما يشمل معناه توكيدا"[٣].

ثم من الله على المؤمنين بنعمة الأزواج والتأنس بهم وطهر النساء من أى دنس، والأزواج: جمع زوج يقال للذكر والأنثى وقد يقال للأنثى زوجة، وآثر التعبير بـ(مطهرة) بدلا من (طاهرة)، وهى أبلغ لأن بها صفة ليست فى طاهرة" وهى الإشعار أن مطهرا طهرهن وليس ذلك إلا الله عزوجل"[٤]، فهو سبحانه يريد بعباده كل فضل ومزية، وأما (طاهرة) فيحتمل أن يكون التطهير من قبل أنفسهن، وكان الظاهر أن تأتى (مطهرات) بدلا من (مطهرة)، ولكن عدل عن الجمع مع التأنيث لثقلهما، فإذا اجتمع جمع مع مؤنث استغنى عن الجمع بالإفراد فكانت (مطهرة) أليق.

وفى قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ احتراس من توهم زوال اللذات وانقطاعها، فالخالد هو: الثابت الدائم الباقى بقاء لازما لا ينقطع، هذا فى الآخرة، بخلاف لذات الدنيا، فهى معرضة للانقطاع والزوال. فجاء الاحتراس لدفع ذلك الوهم تبشيرا لعباده المؤمنين الصالحين بعدم الخوف من زوال نعمه سبحانه، فلا شىء ينقص

---

(١) سورة النمل الآية ٣٤ .
(٢) الكشاف: ج١ ص١٠٩ .
(٣) حاشية الشهاب: ج٣، ص٣٩٠، وينظر البلاغة القرآنية: ص٤٥٣
(٤) الكشاف : ج١ ، ص١١٠ .

إنعامه مع ذكر الخلود، فبشر الله المؤمنين بمجامع الملذات من مسكن بهي، ومطعم شهي، وأزواج مطهرة.

ومن آيات تبشير المؤمنين بالجنات كذلك :

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1]، يصور لنا القرآن الكريم مشهدا من مشاهد يوم القيامة فى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ فنورهم يسعى بين أيديهم وتبشرهم الملائكة بجنات النعيم، وذلك لإنفاقهم فى سبيل الله وإخراجهم الأموال عن طيب نفس، فالأموال التى فى أيدينا ليست أموالنا، وإنما المال مال الله، ونحن مستخلفون فى إنفاقه، والله سبحانه وارث الأموال والأرواح.

يخاطب الله سبحانه نبيه ﷺ ليتذكر يوم القيامة، ذلك اليوم العظيم، وأن الملائكة تبشر المؤمنين فيه بدخول الجنات، ويرى ﷺ نور إيمانهم فى جميع جهاتهم بين أيديهم وعن أيمانهم، وذكر جهة اليمين تشريفا لهم، ولم يذكر الشمال بعدا عن التطير، فالمقام هنا للتشريف. وتنكير (يوم) تفخيم لهذا اليوم العظيم الذى تحدث فيه رؤية المؤمنين والمؤمنات يوم القيامة، ترى نور أيمانهم بين أيديهم وبأيمانهم ومن حولهم، وتبشرهم الملائكة بدخول الجنات، حقا ذلك هو الفوز العظيم.

فقوله تعالى: ﴿هُوَ الْفَوْزُ﴾ تأكيد لفوزهم بهذا النعيم بإضمار المبتدأ وتعريف الخبر، وأنهم ظفروا بكل ما أرادوا وحققوا رغباتهم. وقوله: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ جاء على سبيل المجاز، فالنور لا

---

(١) سورة الحديد الآية ١٢ .

يسعى، وإنما أسند السعى إليه مجازا، والنور مقيد بإيمانهم، أما الكفرة فلا نور لهم أصلا ففيه تعريض بالكفار.

والضمير (هم) فى (نورهم) الإضافة هنا ليست إضافة تعريف ولكن الإضافة هنا للاختصاص، اختصاص النور بالمؤمنين يجعله الله لهم يوم القيامة نور حقيقى . والخطاب فى (ترى) لغير معين أى يوم يرى الرائى فالرؤية بصرية.

والمراد بـ: سعى النور: الامتداد والانتشار ففى (يسعى) استعارة تبعية شبه سعى النور على الصراط يوم القيامة بمشى الماشى بسرعة وبشدة . و(بين أيديهم) كناية عن أمامهم، أو مجاز، يقول الزمخشرى: "حقيقة قولهمك جلست بين يدى فلان، أن يجلس بين الجهتين المساويتين ليمينه وشماله قريبا منه فسميت الجهتان: يدين لكونهما على سمت اليدين مع القرب منهما توسعا كما يسمى الشىء باسم غيره إذا جاوره ودناه فى غير موضع ، وقد جرت هذه العبارة ههنا على سنن ضرب من المجاز، وهو الذى يسميه أهل البيان تمثيلا"[١].

وذكر الشهاب الخفاجى فى حاشيته على البيضاوى أن (بين اليدين) "حقيقته ما بين العضوين " فتجوز بهما عن الجهتين المقابلتين لليمين والشمال القريبتين منه بإطلاق اليدين على ما يجاورهما ويحاذيهما"[٢] ففيه مجاز مرسل.

(بأيمانهم) تخصيص لجهة اليمين تشريفا لهم وإجلالا، فالذين يسعى نورهم بأيمانهم هم أصحاب اليمين ، ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾: البشرى:

---

(١) الكشاف: ج٤، ص٣٤٩، ٣٥٠، ط بيروت، دار الكتاب العربى.
(٢) حاشية الشهاب الخفاجى على البيضاوى، ج٨ ص٢١، طبعة بيروت.

اسم مصدر: بشر وأطلق المصدر على المفعول أى الذين تبشرون به جنات، تبشرهم الملائكة بالفوز وإعطاء الصحائف بأيمانهم، وهنا جاءت صيغة التبشير بالمصدر (بشراكم) للدلالة على دوام النعيم وثبوته، و(بشراكم) وما بعده مقول قول محذوف تقديره: يقال لهم وفيه فصل لشبه كمال الاتصال، فالجملة جواب عن سؤال اقتضته الجملة الأولى وهو: ماذا تقول لهم الملائكة؟، والجواب: تقول لهم: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ ولذلك فصلت هذه الجملة عن الجملة الأولى لما بينهما من ارتباط شديد، فتفصل الثانية عن الأولى كما يفصل الجواب عن السؤال لما بينهما من شدة اتصال.

و(جنات) التذكير فيها للتعظيم، لما فيها من نعيم، فهى فوق وصف الواصفين، والوصف بقوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ لأن الماء أعز شىء بحتاجه الإنسان والعرب تفتقده فى صحرائهم الشاسعة، فالآية أشارت إلى أهمية المياه فى الحياة. واشتملت الآية الكريمة على مجموعة من الجمل الخبرية، وقد تميز الأسلوب بالسلاسة والجمال، فقوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ كناية عن العيش الرغد والخصب، وإشعار بالرخاء والنعمة بين الأنهار والثمار خالدين فيها، والتعبير بالاسم (خالدين) لثبوت هذه الصفة، وحسن جمع (جنات) لأنها مختلفة الأنواع، واسم الإشارة للتعظيم والتنبيه. وفى قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ قصر الفوز على المؤمنين والمؤمنات فأفاد ضمير الفصل (هو) القصر، فالمقصور عليه (ذلك) والمقصور (الفوز)، وأداة القصر توسط ضمير الفصل (هو) بين المسند والمسند إليه، فصر صفة على موصوف، الفوز على المؤمنين والمؤمنات، فأكد القرآن، فوزهم بهذا النعيم، ويكون ضمير الفصل للقصر "إذا

أعرب ضمير فصل، أما إذا أعرب مبتدأ ثانيا فلا يكون للقصر، ويكون الكلام عاديا ليس فيه ما يفيد القصر"[١].

(١) فى علم المعانى: د/حمزة الدمرداش زغلول، ج٢، ص٨٩، ط٣، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

(٢) التبشير بالقدم الصدق

قال تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ [يونس آية ٢].

الهمزة فى ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ استفهام إنكارى لإنكار تعجبهم ولتعجيب السامعين من إنكارهم لكونه فى غير موضعه، أنكروا وتعجبوا من إيحاء الله سبحانه إلى الرجال، وتعجبهم هذا كان لبعدهم عن مقامه ﷺ ورفض ما جاء به لاعتقادهم غيره.

فكان الإنكار والتعجيب لتبيين خطئهم وإبطال زعمهم، وعبر سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ بإدخال الاستفهام الإنكارى على كان، ولم يقلك أعجب الناس، لأن (كان) هنا أفادت ان تعجبهم من الوحى بإرساله بشر حدث وتقرر منهم، فهى تشعر بالاستقرار والتمكن. والمراد (بالناس) : كفار مكة الذين لم يتعجبوا من آلهتهم الأصنام والحجارة والأخشاب ونحو ذلك. ولفظ (عجبا): من العجب، والتعجب: إنكار ما يرد عليك لقلة اعتياده، والعجب: استعظام الشىء لخفاء سببه(١).

(أوحينا): الوحى: الإشارة السريعة، والوحى يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت وبإشارة، وبالكتابة، ويقال للكلمة الإلهية التى تلقى على أنبيائه وأوليائه وحى(٢).

وأوثر لفظ (أوحينا) دون (أرسلنا) : فالإرسال يقال فى الإنسان وفى الأشياء المحبوبة والمكروهة، وقد يكون ذلك بالتسخير كإرسال

---

(١) لسان العرب مادة (عجب) ، وانظر الفروق فى اللغة لأبى هلال العسكرى، ص٢٥٢، ط١، بيروت.

(٢) ينظر مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهانى ، ص٥٥٢ .

الريح والمطر، وقد يكون ببعث من له اختيار نحو إرسال الرسل، وقد أسند إلى الشياطين فى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [سورة مريم آية ٨٣] (١) .

(رجل) وفى إيثار (رجل) على (بشر) إشعار بأن الرسول لا يكون إلا رجلا، فلا يكون الرسول من النساء، وفى الآية أسلوب أمر فى لفظ (أنذر)، (بشر)، أما الإنذار فللكافرين ليرتدعوا، وأما التبشير: فللمؤمنين لطاعتهم، وفى (أنذر الناس) إيثار الإظهار على الإضمار، لأن المراد جميع الناس، لا ما أريد بالمعنى الأول الخاص بالكفار.

"وكون الثانى عين الأول عند إعادة المعرفة ليس على الإطلاق"(٢) يلحظ التهديد من سياق الآية، وحذف المنذر به للتهويل لإنذار الكافرين بعقاب الله ويشعر ذلك بمقابلته بالتبشير للمؤمنين بقوله: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ ﴾.

(قدم صدق) : أى عمل طيب، فى ظاهره صدق، وفى باطنه صدق، وعبر عن العمل الطيب أو عن السابقة فى الخير بالقدم لأن القدم آلته، فالمراد بالقدم هنا السابقة والتقدم والمنزلة الرفيعة(٣).

ولتبشير (الذين آمنوا) بالقدم الصدق مغزاه البلاغى حيث عبر عن المنزلة الرفيعة بالقدم لان بها يحصل السبق والوصول إلى الدرجات العلى، كما يعبر عن النعمة باليد لأنها تعطى بها وأشار أبوالسعود إلى بلاغة هذا التعبير بقوله: "والوجه أن الوصول إلى المقام إنما يحصل بالقدم، وإضافتها إلى الصدق للدلالة على تحققها

---

(١) السابق نفسه.
(٢) تفسير أبىالسعود (إرشاد العقل السليم)، ج٢ ، ص٤٦٣، طبعة دار الفكر.
(٣) ينظر المفردات للراغب، ص٤١٢، ومن أسرار التعبير القرىنى د/محمد أبوموسى ص٣٩ .

وثباتها وللتنبيه على أن مدار نيل ما نالوه من المراتب العلية هو صدقهم، فإن التصديق لا ينفك عن الصدق"[١] وفى (قدم صدق) مجاز بمرتبتين بمعنى: أن (القدم) يراد به السبق مجازا لأنه سببه وآلته، فهنا مجاز مرسل علاقته الجزئية من إطلاق الجزء وإرادة الكل، أو السببية لأن القدم سبب الحركة . والسبق مجاز عن التقدم المعنوى والوصول إلى المنازل العالية، فالقدم مجاز عن السبق والسبق مجاز عن الرفعة ومن هنا كان مجازا بمرتبتين ٠

وإضافة (القدم) إلى (الصدق) من إضافة الموصوف إلى الصفة، أى (قدم صدق) وهذا يفيد تحققها وثباتها، فيه مبالغة كما قال القاسمى: "وفيه مبالغة لجعلها عين الصدق، وتنبيه على أنهم إنما نالوا ما نالوا بصدقهم ظاهرا وباطنا، قال فى (الانتصاف) ولم يرد فى سابقة السوء تسميتها (قدما) إما لأن المجاز لا يطرد، وإما أن يكون مطردا، ولكن غلب العرف على قصرها، كما يغلب فى الحقيقة[٢]٠

﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس ٢] (إن هذا): أى الكتاب الحكيم . قال الطبرى: قرأته عامة قراءة أهل المدينة والبصرة ﴿إن هذا لسحر مبين﴾ بمعنى: إن هذا الذى جئتنا به ــ يعنون القرآن ــ لسحر مبين[٣] ، وقرأ جماعة من قرأه الكوفيين: ﴿إن هذا لساحر مبين﴾ يقول ابن عطية: والمعنى متقارب، وقولهم فى الإنذار

---

(١) تفسير أبى السعود ، ج٢، ص٤٦٣ ٠
(٢) تفسير محاسن التأويل محمد جمال الدين القاسمى، ج٩، ص٣٣٢٢، طبعة دار إحياء الكتب العربية، عيسى الحلبى، وينظر الانتصاف على الكشاف ، ج٢، ص٣٢٧ ٠
(٣) جامع البيان للطبرى، ج١٥ ص١٧ ٠

والبشارة "السحر" إنما هو بسبب أنه فرق بذلك كلمتهم، وحال بين القريب وقريبه، فأشبه ذلك ما يفعله الساحر فظنوه من ذلك الباب[١].

وفى قراءة "سحر" إيجاز، يقول الطبرى: وفى الكلام محذوف استغنى بدلالة ما ذكره عما ترك ذكره وهو: (فلما بشرهم وأنذرهم وتلا عليهم الوحى) قال الكافرون: إن هذا الذى جاءنا به لسحر مبين[٢] فـ(هذا) إيجاز بالقصر وهو إشارة للقريب فكأنه سبحانه يشير إلى ما هو أمام عيونهم وعلى مسمع من آذانهم.

فى هذه الآية فصلت جملة ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ عن قوله تعالى فى الآية التى قبلها: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[٣]، لأن هذه الجملة تثير سؤالا عن ذلك الداعى إلى آيات الله، فجاءت جملة ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ مستأنفة استئنافا بيانيا لتبين أن وجه ذلك هو استبعاد الناس الوحى إلى رجل من الناس استبعاد إحالة، فالفصل لشبه كمال الاتصال، وقد تكون استئنافا ابتدائيا للاستدلال على صدق الرسول وإثبات الغرض[٤].

وفى هذه الآية أيضا فصل قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ عن قوله تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ ، لأن هذه الجملة الأولى إنشائية لفظا ومعنى، والجملة الثانية ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ خبرية لفظا ومعنى، ولذلك لم توصل الثانية بالأولى. فالجملة الثانية قوية الاتصال بالجملة الأولى لكونها جوابا عن سؤال

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية، ج٩ ص٦ .
(٢) جامع البيان للطبرى، ج١٥ ص١٧ .
(٣) سورة يونس الآية ١ .
(٤) ينظر تفسير التحرير والتنوير ج١١ ص٨٣ .

اقتضته الأولى فنزلت منزلته وفصلت الثانية عنها كما يفصل الجواب عن السؤال، ويسمى الفصل لذلك استئنافا[١].

والفصل بالاستئناف البيانى أو شبه كمال الاتصال كما يسميه البلاغيون وصل خفى، وقد تحدث الإمام عبدالقاهر عنه بقوله: "واعلم أن الذى تراه فى التنزيل من لفظ قال مفصولا غير معطوف ، هذا هو التقدير فيه والله أعلم"[٢] والفصل بالاستئناف البيانى أو شبه كمال الاتصال باب من أبواب البلاغة له فوائده ومحاسنه.

وفى الآية وصل بين جملتى (أنذر، وبشر) والوصل للتوسط بين الكمالين لاتفاق (أنذر، وبشر) فى الإنشائية من حيث اللفظ والمعنى فبين الجملتين تناسب إذ المسند إليه فى كل منهما واحد وهو رسول الله ﷺ .

وقدم الإنذار على التبشير "لأن الإنذار تحذير عن فعل ما لا ينبغى، والتبشير ترغيب فى فعل ما ينبغى"[٣].

يقول البيضاوى: "عمم الإنذار إذ قلما من أحد ليس فيه ما ينبغى أن ينذر منه، وخصص البشارة بالمؤمنين إذ ليس للكفار ما يصح أن يبشروا به حقيقة"[٤].

---

(١) ينظر الإيضاح ص١٥٨ ، القزوينى، طبعة ١، بيروت، دار الكتب العلمية.

(٢) دلائل الإعجاز للإمام عبدالقاهر الجرجانى ، ص١٦١ طبعة ٦، طبعة الشيخ رشيد رضا، ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م.

(٣) غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين الحسن النيسابورى، ج١١، ص٥٠ طبعة الحلبى مصر.

(٤) تفسير البيضاوى (أنوار التنزيل) ج٣ ص٨٦ مطبعة مصطفى الحلبى بمصر.

وفى الآية طباق بين (أنثر) ، و(بشر) طباق إيجاب بين فعلين، والغرض منه تأكيد المعنى، وذلك لأن المراد من "الإنذار الإخبار بما فيه توقع ضر، وضده البشارة"(١).

وقد أشار الزمخشرى إلى الفائدة البلاغية للأمر (بشر) بقوله: "فإن قلت: من المأمور بقوله تعالى (بشر)؟ قلت: يجوز أن يكون رسول الله ﷺ ، وأن يكون كل أحد، وهذا الوجه أحسن وأجزل، لأنه يؤذن بأن الأمر لعظمة وفخامة شأنه محقوق بأن يبشر به كل من قدر على البشارة(٢).

(١) تفسير التحرير والتنوير ، ج٨ ص٣٧٢ .
(٢) الكشاف للزمخشرى ، ج١، ص١٠٤، طبعة ٣، طبعة بيروت.

(٣) التبشير بالأجر الكبير

قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[١].

تحدث العلوى عن قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ وبين معنى قوله: ﴿لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ بقوله: "يريد بذلك الطريقة، أو الحالة، أو الخصلة، إلى غير ذلك من المحتملات المتعددة، وأى شىء من هذه الأمور قدرته فإنك لا تجد له من البلاغة، وإن بالغت فى الإفصاح به، الذى تجده من مذاق الفصاحة مع الإبهام من جهة أن الوهم يذهب معه كل مذهب لما فيه من المحتملات الكثيرة"[٢].

يقول د/ محمد أبوموسى: "وهذا مأخوذ من المثل السائر ... وأصله فى الكشاف"[٣].

ويقول الزمخشرى: ﴿لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ : للحالة التى هى أقوم الحالات وأشدها، أو للملة، أو للطريقة .. وأينما قدرت لم تجد مع الإثبات ذوق البلاغة الذى تجده مع الحذف، لما فى إبهام الموصوف بحذفه من فخامة تفقد مع إيضاحه"[٤] فقد حذف الموصوف فى قوله تعالى: ﴿لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ والتقدير الحالة، أو الملة، أو الطريقة، والسر البلاغى لحذفه هو الاختصار والإبهام بدون تفسير ، وكشف الزمخشرى عما ينطوى عليه الحذف مع الإبهام، من معنى بلاغى :

---

(١) سورة الإسراء الآيتان ٩، ١٠ .
(٢) الطراز للعلوى، ج٢ ، ص٧٩ مطبعة المقتضب.
(٣) البلاغة القرآنية د/ أبوموسى ص٧١٨، ينظر المثل السائر، ج٢، ص٢٠٢، والكشاف ج٢، ص٦٥١ .
(٤) الكشاف، ج٢ ، ص٦٥١ .

أن فى إبهام الموصوف تفخيم للأمر وتعظيم لشأنه، ولا نجد مع الإثبات هذا الذوق البلاغى، الذى نجده مع الحذف، فلا تزال النفس تنزع إليه وتشتاق إلى معرفته والإطلاع على كنه حقيقته، ذلك يؤكد فى النفس عظم بلاغة الإبهام[١] ولم يصرح بالمحذوف (الطريقة) لظهورها بدليل ذكر الهداية ٠

وتأكيد الجملة فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ جاء للاهتمام لمراعاة حال المؤمنين المهتمين بالقرآن ، وبما فيه وللإنكار، أى دفع إنكار الذين لم يؤمنوا به، والإشارة فى ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ لتعظيم شأن القرآن، ولا تعارض بين الإنكار والاهتمام٠

قوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ : (ويبشر) عطف على (يهدى) فمن صفات القرآن أنه يهدى للطريقة التى هى أقوم، ويبشر المؤمنين الذين يعلمون الصالحات بالجنة وبالثواب العظيم، ويبشرهم بعقاب أعدائهم، وهم مشركوا قريش بان لهم العذاب الأليم . ووصف المؤمنين بالذين يعملون الصالحات، لكى يتحلى المؤمن بالعمل الصالح. فالله سبحانه بشر المؤمنين ببشارتين:

يقول الزمخشرى: "فإن قلت: علام عطف ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾؟ قلت: على ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ على معنى: أنه بشر المؤمنين ببشارتين اثنتين: بثوابهم، وبعقاب أعدائهم، ويجوز أن يراد: ويخبر بأن الذين لا يؤمنون معذبون"[٢]٠

فعطف﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ على قوله تعالى: ﴿ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ لأنه من جملة البشارة فيكون إعداد العذاب الأليم للذين لا يؤمنون بالآخرة مبشرا به، كثبوت الأجر الكبير للمؤمنين الذين يعملون

---

(١) انظر الطراز للعلوى، ج٢ ص٧٩ (بتصرف)٠
(٢) الكشاف: ج٢، ص٦٥١ ٠

الصالحات، فبشر المؤمنين بثوابهم وعقاب أعدائهم، ذكر مع الهداية بشارة المؤمنين الذين يعملون الصالحات، ونذارة الذين لا يؤمنون بالآخرة، وتلك طريقة القرآن فى تعقيب الرهبة بالرغبة وعكسه[١] فكان هذا أجرا كبيرا٠

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ خص سبحانه الآخرة بالذكر، ولم يذكر سائر ما لم يؤمن به الكفرة، هذا التخصيص لعدم إيمانهم بالآخرة، ولمراعاة التناسب بين أعمالهم والعقاب الذى أعده الله لهم وهو عذاب جهنم، فقال سبحانه: ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وهذا أبلغ فى الزجر لعدم توقعهم العذاب وعدم إيمانهم بالآخرة٠

والآية استئناف ابتدائى وهى تشير إلى الغرض الأهم من هذه السورة وهو التأييد للنبى ﷺ بالآيات والمعجزات، اختصه سبحانه بالإسراء وأعقب ذلك بذكر موسى عليه السلام وأتاه التوراة فهى هدى لبنى إسرائيل، وفيها أن الله سلط عليهم بذنوبهم ليكون ذلك رادعا عن المعاصى للهدى والتحذير، والآية تفيد التحذير للمسلمين حتى لا يقعوا فيما وقع فيه بنوا إسرائيل٠

وقوله تعالى: (يهدى) ليس المراد به تحصيل الاهتداء بالفعل، لكن المراد أنه يهتدى للإسلام وللطريق القويم من يتمسك به فهذا مخصوص بالمؤمنين. قال تعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ و﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قيد فى الإيمان الكامل، للتنبيه على الحالة التى يجب أن يتحلى بها المؤمن، فالعمل هو كمال الإيمان، وبه يصل للأجر الكبير ــ فقوله تعالى: (يهدى) تدل على أن القرآن يهدى إلى العمل الأصلح

---

(١) انظر روح المعانى للألوسى ج١٥ ص٢٢، طبعة دار إحياء التراث العربى، بيروت، ط٤ ـ ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م ، وتفسير التحرير والتنوير، ج١٥ ص٤٠ ٠

وإلى الاعتقاد السليم الأسلم، ووجب أن يظهر أثر ذلك وهو التبشير بالأجر الكبير، لأن الطريق المستقيم لابد وأن يفيد الربح الكبير العظيم، "لهم بمقابلة تلك الأعمال (أجرا كبيرا) بحسب الذات وبحسب التضعيف عشر مرات فصاعدا"[١].

و(أقوم) هنا لا يراد بها التفضيل، فالذى يظهر من المعنى أنه لا مفاضلة بين طريقة وطريقة، ولا يكون المعنى أن القرآن يهدى أفضل من هدى (كتاب بنى إسرائيل) التوراة فى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وإنما معنى (أقوم) هنا قيمة أى مستقيمة كما فى قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾[٢] فالقرآن جاء بأسلوب قويم فيه ضمان سلامة الأمة من الحيدة عن الطريق الصحيح.

وفسر (الأجر الكبير) بالجنة، و(العذاب الأليم) بجهنم، ولكن الأنسب أن يحمل على أجر الدنيا وعذابها، فهذا يناسب ما تقدم من السعادة والشقاء لبنى إسرائيل والاقتصار على التبشير للمسلمين، والإنذار للمشركين هو يقتضى المقام المناسب لتكذيب المشركين بالإسراء وقد ذكر الألوسى رأيا طيبا لتفسير (الأجر الكبير) فى قوله: "إن فسر الأجر الكبير بالجنة فهو ثابت للمؤمن العامل، وللمؤمن المفرط إذ أصل الإيمان متكفل بدخول الجنة فضلا من الله تعالى ورحمة، نعم ما أعد للعامل فى الجنة أعظم مما أعد للمفرط، وإن فسر بما أعده الله تعالى فى الآخرة من الجنة والدرجات العلى، وأنواع الكرامات فيها التى لا يتكفل بها مجرد الإيمان فظاهر أن ذلك غير ثابت للمؤمن المفرط، فلابد من التوصيف، ويلا يلزم منه عدم دخول المفرط الجنة، نعم يلزم منه ان لا يثبت له (الأجر الكبير)

---

(١) تفسير أبىالسعود ج٣ ص٣١١ .
(٢) سورة البينة الآية ٥ .

بالمعنى السابق، والآيات التى يفهم منها دخوله الجنة كثيرة ولعل هذه الآية يفهم منها ذلك، واقتضى المقام عدم التصريح بحكمه"[١] هذا ولم يرد التبشير "بالأجر الكبير" فى القرآن كله إلا فى الإسراء فى هذه الآية ٠

(١) روح المعانى للألوسى، ج١٥ ، ص٢٣ ٠

(٤) التبشير بالأجر الحسن

قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾[1].

الحمد لله على إفاضة نعمه علينا، فهو المستحق سبحانه أكمل الحمد لا غيره، والجملة خبرية، أخبر الله نبيه والمسلمين بذلك. وقوله سبحانه: ﴿أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ وصف النبى ﷺ بالعبودية لله لقرب منزلته من رب العزة، ولرفعة قدره وتعظيم بإنزال الكتاب عليه ﷺ.

جملة: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ جملة معترضة بين (الكتاب) وبين الحال (قيما) وفائدة الجملة الاعتراضية: إبطال قول المشركين أنه ﷺ (افتراه) أو (أساطير الأولين)، أو (قول كاهن) فهذه الأمور لا تخلو من عوج، فالجملة احتراس لئلا يتوهم فى الكتاب أدنى عوج، فهو متصف بالكمال ليس فيه مخالفة فصاحة أو متناقض معنى.

يقول الزمخشرى: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ المراد نفى الاختلاف والتناقض عن معانيه، وخروج شىء منه من الحكمة والإصابة فيه"[2] والعوج: بكسر العين وفتحها وبفتح الواو: ضد الاستقامة، ويطلق مجازا على الانحراف عن الصواب والمعانى المقبولة المستحسنة[3].

معنى (قيما) كما ذكر الشوكانى: "القيم: المستقيم الذى لا ميل فيه ، أو القيم بمصالح العباد الدينية والدنيوية، أو القيم على ما قبله

---

(١) سورة الكهف الآيات ١ ـ ٣ .
(٢) الكشاف: ج٢، ص٧٠٢ .
(٣) انظر تفسير التحرير والتنوير ج٥، ص٢٤٦ .

من الكتب السماوية مهيمنا عليها، وعلى الأول يكون تأكيدا لما دل عليه نفى العوج ، فرب مستقيم فى الظاهر لا يخلو من أدنى عوج فى الحقيقة(١).

وهذا ما ذكره الزمخشرى قال: "فإن قلت: ما فائدة الجمع بين نفى العوج وإثبات الاستقامة ، وفى أحدهما غنى عن الآخر؟ قلت: فائدته التأكيد، فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة ولا يخلو من أدنى عوج عن السبر والتصفح"(٢).

ويحتمل أن تكون (قيما) بيانا لقوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ وليس تأكيدا لنفى العوج، ولذلك لم تعطف على الجملة الأولى، فهى موضحة لها، والشىء لا يعطف على نفسه، ففصلت لكمال الاتصال لأنها بمثابة البيان من الأولى، والجمع بينهما كالجمع بين ﴿لَا رَيْبَۛ فِيهِۛ﴾ وبين ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ من حيث إن الثانية بيانا للأولى، وبين العوج والاستقامة طباق.

قوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ الفعل (أنذر) متعد إلى مفعولين، حذف هنا المفعول الأول وتقديره: الذين كفروا، واقتصر على المفعول الثانى وهو قوله : ﴿بَأْسًا شَدِيدًا﴾ لأن المقصود تهويل البأس الشديد، لتهديد الكافرين الذين ينكرون إنزال القرآن من عند الله، ولأن المفعول الأول وهو: الذين كفروا، ظاهر دل عليه السياق بقرينة ما يعده ولا حاجة إلى ذكره، وأيضا الحذف لقصد التعميم، والتقدير: (الذين كفروا) أفضل لأنه مقابل لقوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾(٣).

---

(١) فتح القدير للشوكانى، ج٣ ، ص٣٨٢ .
(٢) الكشاف، ج٢، ص٧٠٢ .
(٣) سورة الكهف الآية ٣ .

﴿وَيُبَشِّرَ﴾ عطف على قوله: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ وإيثار صيغة المضارع فى صلة الموصول فى قولـه: ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فلإشعار باستمرار العمل وتجدده، وذكر العمل الصالح مـع الإيمـان للتنويه على أن استحقاق الأجر الحسن مرتبط بحصول هذين الأمرين وتقديم الإنذار على التبشير للعناية بزجر الذين كفروا عما هم عليـه من تكذيب وإنكار الرسالة.

قوله سبحانه: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾، الأجر الحسن: هو الجنة[1]، والأجر الحسن: ما لا يجرى مع صاحبه استقصاء فى العمل، وأنـه : ما يزيد على مقدار العمل[2] . ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ﴾ أى فى الأجر ﴿أَبَدًا﴾ أى مكثا دائما لانقطاع له.

والمكث: يكون بالاستقرار فى المكان، أما ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ﴾ فى الأجر فقد جاء على سبيل المجاز، حيث شبه حالهم من اللذات والنعيم بالظرف الذى يستقر فيه. فكأن الأجر الحسن مكـان يحـيط بهـم لا يفارقهم، فهم يتمتعون متاعا لا انقطاع له.

ولعل ما سبق ذكره فى التبشير (بالأجر الكبيـر) فـى الآيـة التاسعة من سورة الإسراء ينطبق على التبشير (بالأجر الحسن) هنا، لقيدك تبشير المؤمنين بـ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فى الآيتـين، وللاتفاق بين الآيتين فى الإنذار والوعيد للمشركين.

ومن بلاغة التبشير فى هذه الآية "حذف المنـذر" هنـا وأتـى "بالمنذر به" ﴿بَأْسًا شَدِيدًا﴾ للدلالة عليه فى الآية بعدها فـى قولـه: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾، فحذف المنذر به، وأتى بالمنذر

---

(١) فتح القدير للشوكانى، ج٣ ، ص٣٨٢ .
(٢) لطائف الإشارات للإمام القشيرى، ج٤ ، ص٤٨ تحقيق د/إبراهيم بسيونى، ط دار الكتاب العربى ـ القاهرة.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾ [الكهف الآية ٤]، وهذا فى غاية البلاغة، فكما حذف: المنذر، وأتى بالمنذر به أولا، [آية ٣ من سورة الكهف]، حذف المنذر به وأتى بالمنذر ثانيا [آية ٤ من نفس السورة] فحذف الأول لدلالة ما فى الثانى عليه، وحذف الثانى لدلالة ما فى الأول عليه، والحذف أعظم وأبلغ فى الزجر.

٥ ـ التبشير بالفضل الكبير

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴾ [الأحزاب الآيات ٤٥ ــ ٤٧] ٠

تحول الأسلوب من خطاب المؤمنين إلى خطاب سيد المرسلين تذكرة له ﷺ بنبوته ورسالته فى الأرض، وأنه شاهد ومبشر ونذير ينذر بالهلاك أهل الباطل ويذكره بالدعوة إلى الله، وأنه سراج منير يهدى إلى سواء السبيل، هذه الصفات اشتملت على مجامع الرسالة المحمدية، وترتيبها جاء لأسرار بلاغية، حيث خوطب ﷺ بالنداء بـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ للتنويه بشأنه ﷺ ، وزيادة رفعته، واستعمال حرف النداء الذى للبعيد للإشارة على أن النداء لأمر هام وخطير حتى يستقبله ﷺ بقلبه وعقله، ولولا هذا السر البلاغى لجاء النداء بأى ، أو الهمزة فالله سبحانه قريب، والنداء (بيا) الذى للبعيد يفيد التوكيد، ولم يقع فى القرآن نداء بغيرها وإفادتها للتوكيد لأنها تؤذن بأن ما يأتى بعدها أمر معنى به وهام ٠

ولذلك كان من إعجاز أسلوب القرآن أن يأتى بعدها لفظ (النبى) الذى من النبأ وهو الخبر العظيم ذو الفائدة الجليلة٠

والنبى من النبئ صيغة مبالغة أى فعيل فهو ينبئ عن الله عزوجل، قال تعالى: ﴿ ۞ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ ﴾[1]، ومن مهام النبوة رسالته إلى الناس، فالله سبحانه أرسل نبيه ﷺ شاهدا على من بعث غليهم

---

(١) سورة الحجر الآية ٤٩ ٠

وعلى صدقهم وكذبهم "أى مقبولا قولك عند الله لهم وعليهم، كما يقبل قول الشاهد العدل فى الحكم"(١).

وشهادته ﷺ على من عاصره من مكذبين ومصدقين أمر ظاهر، ولكن كيف يشهد على من لم يره ممن جاء بعد عصره ﷺ؟

والجواب أنه عليه السلام شاهد بأنه: لا إله إلا الله وهذه مهمة ليست ميسورة ولا سهلة، فهى تدل على نفى كل المعبودات التى يعبدها الناس والتى تصرفهم عن ربهم.

فهو ﷺ شاهد بأنه لا قوة ولا سلطان إلا لله وحده لا شريك له، ولا تعدد لآلهة ، وهذه رسالة الأنبياء عليهم السلام، ولذلك كانت شهادته ﷺ ذات معنى عميق، ومن هنا ناسب أن يأتى بعد ذلك قوله تعالى: (مبشرا) أى لمن شهد أنه لا إله إلا الله، و(نذيرا) لمن طمست بصائره ولم يؤمن بالله تعالى.

ونلاحظ فى ترتيب هذه الآية تقديم التبشير على الإنذار، وذلك لأن النبى جاء مبشرا للمؤمنين بالخير والفوز والرحمة فتقديم البشارة ﷺ غلب عليه التبشير فجاء الأمر الإلهى موجها إليه بأن يبشر المؤمنين ﴿بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ وعطف على التبشير الإنذار للكف عن ملاينة أعداء الدين أو طاعتهم، فهو منذر للكافرين ولمن يخالفون دينه.

فالتبشير والإنذار جاءت الدعوة إلى الله تعالى، فكان داعيا إلى الله بأذنه وسراجا منيرا، وجاءت كلمة (نذير) بصيغة (فعيل) وهى أفضل من: منذر، لأن (نذير) اسم لمن يخبر القوم بحلول عدو نزل بديارهم، ويدل على تحقيق ما أنذرهم به حتى كأنه قد وقعن لذا قل الوصف بمنذر فى القرآن وكثر الوصف بالنذير.

---

(١) الكشاف : ج٣ ، ص٥٤٦ .

يقول الطاهر بن عاشور: "تذير اسم للمخبر بحلول العدو بديار القوم، فالوصف بنذير تمثيل بحال نذير القوم للإيماء إلى تحقيق ما أنذرهم به حتى كأنه قد حل بهم وكأن المخبر عنه مخبر عن أمر قد وقع، وهذا ما يؤديه إلا اسم: النذير، ولذلك كثر فى القرآن الوصف بالنذير وقل الوصف بمنذر"(١).

ويأتى بعد ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ قوله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾ أى داعيا إلى شريعة الله ومنهجه، الداعى الرسول ﷺ يدعو الناس إلى أن يتصلوا بربهم وينصرفوا عن ضلالاتهم فهو ﷺ يدعو خلق الله إلى الله فكان بلاغة التعبير بقوله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ لا إلى نفسه ﷺ أو أفكاره أو شأن خاص به مما يشعر بنوع من التسلط، وإنما جاء ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾، وقوله تعالى: (بإذنه) تفيد تيسير وتسهيل أمر الدعوة لنبيه ﷺ لثقل هذا الأمر وهو ما استشعره النبى ﷺ فى بداية الوحى "فهذا إذن خاص وهو الإذن بعد الإحجام المقتضى للتيسير، فأطلق اسم الإذن على التيسير على وجه المجاز المرسل"(٢) لأن التسهيل والتيسير من أسباب الإذن.

ويقول الزمخشرى: "لم ترد به حقيقة الإذن، وإنما جعل الإذن مستعارا للتسهيل والتيسير ... وذلك أن دعاء أهل الشرك والجاهلية إلى التوحيد والشرائع أمر فى غاية الصعوبة والتعذر، فقيل: بإذنه للإيذان بأن الأمر صعب لا يتأتى ولا يستطاع إلا إذا سهله الله ويسره"(٣).

---

(١) تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، ج٢٢ ، ص٥٢ .
(٢) التحرير والتنوير ، ج٢٢ ، ص٥٣ .
(٣) الكشاف : ج٣، ص٥٤٧ .

ففى المجاز فى إطلاق الإذن على التيسير إشارة إلى مجال الدعوة إلى الله صعب يتطلب المزيد من الصبر لا يدخل فيه إلا من ابتغى وجه ربه وعلم الله صدقه وإخلاصه وفقهه فى الدين فأذن الله له فيدخل مع تلك الفئة المؤمنة فيكون من الدعاة الذين يحملون راية النبيين ٠

والمتأمل فى آيات سورة الأحزاب يجد إشارات لطيفة ومعجزة حيث ناسب قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ قوله: ﴿وَمُبَشِّرًا ﴾ كما ناسب قوله: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ صفة: الإنذار، فهو ﷺ : نذير للمكذبين مما اقتضى أن يكون موقفه حاسما معهم ٠

كذلك جاء قوله تعالى ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ ﴾ فى مقابلة قوله تعالى: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ ﴾ وهذا من إعجاز نظم القرآن الكريم ودقة نسقه، لأن من يعدو للحق والخير لابد أن يناله اذى من أهل الباطل فأمره الله بألا يبالى بإيذائهم وأن يمضى فى الدعوة إلى الله، فجاء أسلوب الإنشاء مقابلا لأسلوب الخبر مقابلة دقيقة فى نسق فريد ٠

وفى قوله تعالى: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ تشبيه بليغ ، شبه النبى ﷺ بالسراج المنير الوهاج الذى يضىء ظلمة الليل، يضىء الطريق لنا فينصلح أمر ديننا ودنيانا، "جلى به الله ظلما الشرك، واهتدى به الضالون، كما يجلى ظلام الليل بالسراج المنير ويهتدى بهن أو أمد الله بنور نبوته نور البصائر، كما يمد بنور السراج نور الأبصار"(١) ٠

ومن أن الإنارة من لوازم السراج إلا أن الوصف جاء ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ وذلك لإفادة قوة معنى الإنارة للسراج، وللإشارة إلى أن النور الذى جاء به ليس من ذاته وإنما هو وحى أوحاه الله إليه

---

(١) الكشاف : ج٣، ص٥٤٧ ٠

وأفاض به عليه، فهو سراج يشع من النور الذى ينعكس عليه من الذات الإلهية، وهذا يؤكد بشريته وقدسية المعانى الشرعية التى جاء يدعو إليها. فهو ﷺ هديه واضح جلى ٠

وينتقل سياق الكلام من الخبر إلى الإنشاء فى قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ لما فى ذلك من لفت انتباه ودلالة على عناية الله تعالى بالمؤمنين ببشارتهم بفضل الله الكبير ٠

وعطف ﴿ وَبَشِّرِ ﴾ على قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ ﴾ فهى إخبار عن النبى ﷺ بأن الله أرسله بتلك الصفات المذكورة، فالاختلاف مضمون الجملتين، صح عطف الجملة الإنشائية على الجملة الخبرية، وهذا دليل واضح على صحة عطف الإنشاء على الخبر ٠

قال تعالى: ﴿فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ الفضل: ما زاد على العطاء، فهو كناية عن العطية، فالله سبحانه يعطى المؤمنين ثواب أعمالهم وزيادة كما يقول الزمخشرى: "فضل ما يتفضل به عليهم زيادة على الثواب، وإذا ذكر المتفضل به وكبره فما ظنك بالثواب. ويجوز أن يريد الفضل: الثواب ... وأن يريد أن لهم فضلا كبيرا على سائر الأمم، وذلك الفضل من جهة الله تعالى، وأنه أتاهم ما فضلوهم به"(١).

ذكر ابن عطية: "أن قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ أرجى آية فى كتاب الله تعالى "لأن الله قد أمر نبيه أن يبشر المؤمنين بأن لهم عنده فضلا كبيرا، وقد بين الله تعالى الفضل الكبير ما هو فى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَٰتِ ٱلْجَنَّٰتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [سورة الشورى

---

(١) الكشاف: ج٣، ص٥٤٧ ٠

آية ٢٢]، فالآية التى فى هذه السورة ــ يريد الأحزاب/٤٧ ــ خبر، والدية التى فى حم عسق ــ الشورى ٢٢ ــ تفسير لها"[١].

فتبشير الله تعالى للمؤمنين بالفضل الكبير كونهم فى روضات الجنات وأن لهم ما يشاءون عند ربهم. لذلك كان التبشير هنا بالفضل الكبير.

---

(١) تفسير المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز لابن عطية، ج١٤، ص٢١٧ تحقيق المجلس الأعلى بفاس، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

بلاغة التبشير الضمنى

قال تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة البقرة الآية ٢٢٣].

الحرث والحراثة: العمل فى الأرض زرعا كان أو غرسا.
ومن المجاز: الحرث: التفتيش، يقال حرث إذا فتش(١).

يقول الإمام الطبرى: "القول فى تأويل قوله تعالى: ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ يعنى تعالى ذكره بذلك: فانكحوا مزروع أولادكم من حيث شئتم من وجوه المأتى، والإتيان فى هذا الموضع كناية عن اسم الجماع"(٢).

وقد تابع أبوحيان وأبوالسعود الإمام الطبرى فيما قال(٣)، ويلفت الشيخ سيد قطب إلى قدرة الله سبحانه ويتأمل بلاغة الآية ودقة أداء القرآن الكريم بقوله: "وفى هذا التعبير ألوان من التناسق الظاهر والمضمر، ومن لطف الكناية عن ملابسات دقيقة، وأدق ما فيه هو ذلك التشابه بين صلة الزارع بحرثه ، وصلة الزوج بزوجه فى هذا المجال الخاص، وبين ذلك النبت الذى يخرجه الحرث، وذلك النبت الذى يخرجه الزوج، وما فى كليهما من تكثير وعمران وفلاح"(٤).

---

(١) ينظر أساس البلاغة للزمخشرى، ولسان العرب مادة (حرث).
(٢) جامع البيان عن تأويل آى القرآن لأبىجعفر بن جرير الطبرى، ج٢، ص٣٩٢، مطبعة المدنى، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٣٨٨هـ - ١٩٨٩م.
(٣) انظر تفسير البحر المحيط، ج٢، ص١٧٠، وتفسير أبىالسعود، ج١، ص٢٢٣ .
(٤) التصوير الفنى فى القرآن ، سيد قطب ، ص٧٥ طبعة بيروت.

فما بينه الشيخ سيد قطب من لفتة طيبة فى هذه الآيــة مــن الصلة بين الحرث والزوج وبين النبت والإنجاب هذا مــن الإعجــاز البلاغى، ومن هنا كان تعبير القرآن لفظ (حرثكم) دون غيــره مــن الإعجاز أيضا٠

والزمخشرى يقول: "إن فى الآية مجازا، ويطلق المجاز علــى صورة التشبيه البليغ فى قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾[١]، يقــول "من فيها" مواضع الحرث لكم، وهذا مجاز شبهن بالمحارث تشــبيها لما يلقى فى أرحامهن من النطف التى منها النسل ، بالبذور"[٢]٠

لكن هل الزمخشرى يريد بالمجاز هنا الاستعارة المكنية؟ علــى أن النساء محارث والنطف بذور، حيث جاء فى قوله: (تشبيها لمــا يلقى فى أرحامهن بالبذور) قد يعترض على هذا بأن هنا لــم يــذكر المشبه صريحا، والاستعارة بالكناية يــذكر فيهــا المشــبه صــريحا والمشبه به مكنيا٠

ولعل أقرب إلى الصواب أنه تشبيه مترتب على تشبيه متــروك وهو تشبيه النطف بالبذور، كما بين ذلك الدكتور محمــد أبوموســى قال: "إن الزمخشرى: "أطلق المجاز هنا باعتبار حمل المشبه به على المشبه، فيكون قد أطلق المجاز على صورة التشبيه تساهلا ، وعدم التزام برأى المحققين ، فقد قال : (هذا مجاز شبهن بالمحارث)، وهذا تفسير واضح لظاهر التركيب ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾، ولعل بنــاء هــذا التشبيه على تشبيه آخر هو الذى ساعد على هذا التساهل[٣]٠

---

(١) سورة البقرة من الآية ٢٢٣ ٠
(٢) الكشاف، ج١، ص٢٦٦ ٠
(٣) البلاغــة القرآنيــة فــى تفســير الزمخشــرى، د/ محمــد أبوموســى، ص٤٩٢ ٠

يقول الآلوسى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ على كل تقدير هو خبر عما قبله، إما بحذف المضاف أى مواضع حرث، أو التجوز والتشبيه البليغ اى كمواضع ذلك، وتشبيههن بتلك المواضع متفرع على تشبيه النطف بالبذور، من حيث أن كلا منهما مادة لما يحصل منه ولا يحسن بدونه فهو تشبيه يكنى به عن تشبيه آخر"[١] فهو يرجح أن بالدية تشبيه بليغ.

وجاءت جملة: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾[٢] تذليلا للآية السابقة وهى قوله تعالى:﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾، والسر البلاغى للتذييل هنا: هو الترفق بالمخاطبين وإشعارهم بان منعهم من القرب من النساء فى مدة الحيض منع مؤقت لفائدة حفظهم من الأذى، والآية بيان وتوضيح لما قبلها.

وجملة ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ مقدمة للجملة فى نفس الآية ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ وهى ليست تعليلا لإتيانهن أنى شاءوا: "فلو أوثر معنى التعليل لأخرت عن جملة ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾، ولكن أوثر أن تكون مقدمة للتى بعدها لأنه أحكم نسيج نظم ولتتأتى عقبة الفاء الفصيحة"[٣] أى (الفاء) فى : (فأتوا) فاء فصيحة لترتب ما بعدها على تقرر أن النساء حرث لهم، وتشبيه النساء بالحرث فى هذه الآية تشبيه طيب حيث يشبه النسل بالزرع.

يقول الشوكانى: "لفظ (الحرث) يعيد أن الإباحة لم تقع إلا فى الفرج الذى هو القبل خاصة إذ هو مزدرع الذرية، كما أن الحرث مزدرع النبات، فقد شبه ما يلقى فى أرحامهن من النطف التى منها

---

(١) روح المعانى للألوسى، ج١، ص١٢٤ .
(٢) سورة البقرة الآية ٢٢٣ .
(٣) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، ج٢، ص٣٧١ .

النسل بما يلقى فى الأرض من البذور التى منها النبات بجامع أن كل واحد منها، مادة لما يحصل منه"[١]، وجملة ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ من الكنايات الرائعة للتعبير عن المعاشرة الزوجية بأسلوب بليغ حسن فهى من الآداب الحسنة فى كلام الله تعالى ينبغى تعلمها والتأدب بها فى المحاورات والمكاتبات، حقا إنه أحكم نسيج نظم.

وهذه الآية جديرة بالاهتمام لاختلاف العلماء فى معناها وفى تفسيرها، فقوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ تحمل (أنى) على معنى ك كيف "أى من أى جهة شئتم"[٢] ، وتكون معنى: متى أى "فأتوا نساءكم متى شئتم إذا تطهرن"[٣].

وقد تكون (أنى) للشرط وحذف جوابها لدلالة ما قبله عليه[٤] ومن الجدير أن نلفت لمعنى قوله تعالى: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ لإزالة الشبهة فى فهم معنى ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾.

يقول الزمخشرى: "يعنى أن المأتى الذى أمركم الله به هو مكان الحرث، ترجمة له وتفسيرا ، وإزالة للشبهة، ودلالة على أن الغرض الأصيل فى الإتيان هو طلب النسل لا قضاء الشهوة، فلا تأتوهن إلا من المأتى الذى يتعلق به هذا الغرض"[٥].

كذلك يقول الشوكانى: "وقد ذهب السلف واخلف من الصحابة والتابعين والأئمة إلى ما ذكرناه من تفسير الآية، أن إتيان الزوجة فى دبرها حرام"[٦] والتعبير بـ(أنى) أليق فى مكانه وأنسب من كيف

---

(١) فتح القدير للشوكانى، ج١، ص٣٣٥ .
(٢) المرجع نفسه .
(٣) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، ج٢، ص٣٧٢ .
(٤) انظر الإتقان للسيوطى، ج، ص١٥٦ .
(٥) الكشاف، ج١، ص٢٦٦ .
(٦) فتح القدير للشوكانى: ج١، ص٣٣٦ .

ومتى وإذا، لإفادة العموم. جاء فى فتح القدير: "عبر سبحانه بقوله: (أنى) لكونها اعم فى اللغة من كيف وأين ومتى"(١).

قوله تعالى: "﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ للتحذير من أن يجترئوا على المناهى، ثم المبالغة فى التحذير بقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾، وقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ تذليلا لقوله: ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ﴾، فالتقوى هنا خاصة بوجوب إتباع القرآن فى العلاقة بين الرجل والمرأة فى هذا الوضع المخصوص لأن الإنسان سوف يسأل عن ذلك، ولذلك قال ــ واعلموا أنكم ملاقوه، ثم جاء تبشير المؤمنين بالجزاء العظيم، وهم الذين اتبعوا الأحكام السابقة فى الإتيان وآمنوا بها شريعة وسلوكا.

وأمر الله للمسلمين بالعلم بأنهم ملاقوه مع أنهم يعلمون ذلك، تنزيلا لعلمهم منزلة العدم فى هذا الشأن، اهتماما بهذا المعلوم وتنافسا فيه، وليتزودوا، فإن خير الزاد التقوى(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: المراد المؤمنون الذين كمل إيمانهم فيستوجبوا المدح والتبشير بلقاء الله ، وذكر البشارة بعد ما تقدم لبيان إن إتباع الأحكام المتقدمة هو الإيمان الكامل فيكون التبشير تأنيسا لمن يفعل الخير ويترك الشر.

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [سورة التوبة ١١١].

---

(١) المرجع نفسه.
(٢) انظر تفسير التحرير والتنوير، ج٢ ، ص٣٧٥ (بتصرف)، والكشاف ج١ ص٢٦٦ .

زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى فى قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبْشِرُواْ﴾ حيث نقل اللفظ من وزن إلى وزن آخر أكثر منه، فقد عدل عن (بشر) إلى السداسى (الستبشر) ليتضمن من المعنى الدال عليه أكثر مما تضمنه أولا ، فالألفاظ أدلة على المعانى، وقوة اللفظ لقوة المعنى، فإذا زيد فى الألفاظ أو يزيد فى المبنى أوجب بذلك زيادة المعنى، وهذا النوع من الزيادة لا يستعمل إلا فى المبالغة، فنرى فى بلاغة القرآن مراعاة الكلام لمقتضى الحال فى قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ﴾ استعارة تصريحية تبعية، فقد استعار الشراء من المؤمنين، شراء أنفسهم وأموالهم التى بذلوها فى سبيل الله، بمقابلتها بالجنة وإثباته إياهم بها، ثم جعل المبيع أنفس المؤمنين وأموالهم وجعل الثمن هو الجنة.

فالشراء مستعار للوعد بالثواب عن القتال . قال تعالى: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ شبه الوعد بالاشتراء فى أنه إعطاء شىء مقابل بذل.

أثبت الله سبحانه هذا الوعد الذى وعده للمجاهدين أثبته (فى التوراة والإنجيل والقرآن) والآية عامة فى كل من جاهد فى سبيل الله من أمة محمد ﷺ إلى يوم القيامة، كما يقول ابن عطية[1] وهذا تمثيل من الله عزوجل جميل صنعه بالمبايعة، وذلك أن حقيقة المبايعة أن تقع بين نفسين بقصد منهما وتملك صحيح. وهذه القصة وهب الله عباده أنفسهم وأموالهم ثم أمرهم ببذلها فى ذاته ووعدهم على ذلك ما هو خير منها، فهذا غاية التفضل، ثم شبه القصة بالمبايعة، فالآية على هذا أعم من القتل فى سبيل الله، ناهيك عن صفقة: البائع فيها رب العلى، والثمن جنة المأوى، والواسطة محمد ﷺ .

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية، ج٨ ص٢٨٢ .

وجملة ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ تذليل لتحقيق المعنى، فالجملة حققت ما قبلها، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ تذليل خرج مخرج المثل والاستفهام يحتمل أن يكون إنكاريا بتنزيل السامع منزلة المنكر للوفاء بالوعد، فيقول: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ إنكارا عليه، والأولى أن يكون الاستفهام تقريريا، أى لا أحد أوفى بعهده من الله تعالى. وقوله: "فاستبشروا" ليس من معنى طلب الشىء، كاستوقد، بل هو كعجب واستعجب(١).

والتعبير بـ(فاستبشروا) جاء على طريق الالتفات، زيادة فى سرور المؤمنين من الغيبة إلى الخطاب ، فالله سبحانه ﴿ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ وخاطبهم بقوله تعالى : ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟﴾ وفائدة الانتقال من الغيبة إلى الخطاب استعمل لتعظيم شأن المخاطب جهة الالتفات وجماله فى الأسلوب هو ما قال الزركشى فى بيان حقيقة الالتفات : "نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر تطرية واستدرارا للسامع، وتجديدا لنشاطه"(٢) ، فيسر التعبير بالالتفات هو أمر تفسير له مكانة، فهو يفاجئ السامع بتغير مفاجئ غير متوقع فيحدث التشويق ويتحجج النشاط . والفاء الفصيحة هنا لترتيب الأمر بالاستبشار على ما قبله ، حيث نتج عن كون الوعد حقا على الله تعالى، وأنه سبحانه أوفى بعهده ممن سواه أن يستبشر المؤمنون ببيعهم هذا، والخطاب والاستبشار للمؤمنين دون غيرهم.

وقال سبحانه: (ببيعكم) بإضافة البيع إلى ضميرهم إظهارا لسرورهم به، و﴿ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ هذا الوصف بالموصول وصلته،

---

(١) انظر المحرر الوجيز لابن عطية، ج٨، ص٢٨٤ .
(٢) البرهان ج٣، ص٣١٤، تحقيق محمد أبوالفضل، طبعة الحلبى ١٩٧٦م.

جاء تأكيدا لمعنى (بيعكم)، و﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ تذليل واسم الإشارة (ذلك) إشارة إلى بيعهم واستبشارهم به، والتأكيد بالجملة الاسمية وبضمير الفصل، وبالوصف بالعظيم للحث على أهمية الجهاد، والترغيب فيه . حيث وصف تعالى ذلك البيع بأنه الفوز العظيم، أى أنه الحصول على الخط الأغبط من خط الذنوب ودخول الجنة بلا حساب"(١).

ولا ترى ترغيبا فى الجهاد أحسن منه وأبلغ(٢) حيث جاء فى الآية وعد الله سبحانه للمؤمنين المجاهدين بالفوز بالجنة، قال تعالى: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾، ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ﴾، ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

قال تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة ١١٢)، جوز الزمخشرى أن يكون (التائبون) مبتدأ، وخبره العابدون، وما بعده خبر بعد خبر، أى التائبون من الكفر على الحقيقة الجامعون لهذه الخصال"(٣).

وما ذكره الزمخشرى فيه نظر فهو بعيد عن المعنى، فما بعد (التائبون) صفات مستقلة بعضها عن بعض، و(السائحون): الصائمون: شبهوا بذوى السياحة فى الأرض فى امتناعهم من شهواتهم، وقيل: هم طلبة العلم يسيحون فى الأرض يطلبونه فى مظانه ويذهبون إلى كل جهة لتحصيله(٤) ، ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية، ج٨، ص٢٨٤ .
(٢) الكشاف ، ج٢، ص٣١٤ .
(٣) السابق نفسه .
(٤) السابق نفسه .

هم القائمون بحفظ شرائعه التى أنزلها فى كتبه وعلى لسان رسله، فهو لفظ عام تحته إلزام الشريعة والانتهاء عما نهى الله عنه، وحققه الحفظ: توحى بقاء الشىء فى مكانه، ويطلق مجازا شائعا على ملازمة العمل بما يؤمر به وهو المراد هنا(١).

"وأطلقت الحدود مجازا على الوصايا والأوامر، فالحدود تشمل العبادات والمعاملات ولذلك ختمت بها هذه الأوصاف، وعطف بالواو لئلا يوهم ترك العطف أنها مع التى قبلها صفتان متلازمتان معدودتان بعد صفة الأمر بالمعروف"(٢).

فى الآية تسعة أوصاف، وفى الوصف الثامن جاءت الواو، وسماها الرازى (واو الثمانية) وهى تدخل على ما كان ثامنا، ولكن فى البحر المحيط رد عليه، قال أبوحيان: إذا تباين ما بين الوصفين جاز العطف ، ولما كان الأمر مباينا للنهى، إذ الأمر طلب فعل، والنهى ترك فعل حسن، والعطف فى قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّاهُونَ﴾، ودعوى الزيادة أو واو الثمانية ضعيف(٣).

ويقول الطاهر بن عاشور: كثر الخوض فى واو الثمانية والوجه عندى أنه استعمال ثابت فى كلام العرب(٤)﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الموصوفين بالصفات المذكورة، يبشرهم ﷺ بالخير من الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس ٨٧].

---

(١) انظر تحرير التنوير ج١١، ص٤٣، وفتح القدير للشوكانى، ج٢ن ص٥٧٢، والمحرر الوجيز لابن عطية، ج٨، ص٢٨٨ .
(٢) تفسير التحرير والتنوير ، ج١١، ص٤٣ .
(٣) انظر البحر المحيط ج ص
(٤) انظر التحرير والتنوير ، ج١١ ، ص٤٣ .

الأمر فى قوله تعالى: ﴿تَبَوَّءَا﴾ بمعنى اتخذا مباءة أى مرجعا للعبادة والصلاة كما نقولك توطن : اتخذ موطنا والظاهر اتخاذ البيوت بمصر"[١].

وقوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ "أمروا بأن يتخذوا بيوتهم مساجد"[٢] وأسند فعل (اجعلوا) إلى ضمير الجماعة لان ذلك الجعل من عمل موسى وأخيه وقومهما، إذ كل أحد مكلف بأن يجعل بيته قبله، وآمرهم بإقامة الصلاة ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أى التى فرضها الله عليهم على لسان موسى، والظاهر أن الداعى إلى أمرهم بإقامة الصلاة أن اتخاذ البيوت كان فى حالة رحيل ، فكانت حالتهم مظنة الشغل عن إقامة الصلوات، فذلك أمروا بالمحافظة على إقامة الصلاة فى مدة رحلتهم"[٣].

وعطف جملة ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على ما قبلها يؤذن بأن ما أمروا به من اتخاذ البيوت أمر بحالة مشعرة بترقب أخطار وتخوف، فإنهم قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ فأمر موسى أن يبشرهم بحسن العاقبة، وأنهم منصورون على عدوهم وناجون منه، والمؤمنون هم قوم موسى"[٤] فالغرض من الأوامر التى وردت فى الآية الكريمة إلهاب قلوب القوم والتهييج والإثارة لمعرفة صدق إيمانهم.

---

(١) البحر المحيط، ج٥، ص١٨٥ .
(٢) السابق نفسه .
(٣) تفسير التحرير والتنوير، ج١١ ، ص٢٦٦، ٢٦٧ .
(٤) المرجع السابق نفسه .

معنى (تبوءا): أصل البواء: مساواة الأجزاء فى المكان، وبوأت له مكاناك سويته، فتبوأ. وتبوأ المكان : اتخذه مباءة كقولك: توطنه: إذا اتخذه موطنا[١].

التبوؤ: اتخاذ مكان يسكنه، وهو من البوء أى الرجوع، فمعنى (تبوءا لقومكما) اجعلوا قومكما متبوئين بيوتا، ومعنى تبوؤ البيوت لقومهما: أن يأمرا قومهما باتخاذ البيوت على الوصف الذى يأمر أنهم به[٢] وأوثر لفظ (التبوؤ) هنا دون (الاتخاذ) لأن التبوؤ: يفيد معنى الإلزام والاستقرار أكثر من الاتخاذ يقال: بواه الله منزلا اى ألزمه إياه وأسكنه[٣].

والآية فى قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عطف على ما قبلها، فالمعطوف (وبشر) جملة فعلية فهى إنشائية لفظا ومعنى لأنها أمرن وكذا المعطوف عليه قبلها إنشاء لفظا ومعنى فاتحدت الجملتان فى الإنشائية، والوصل فى الآية للتوسط بين الكمالين وليس فى الجملتين ما يمنع من العطف.

قال تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف ١٣]، قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ﴾ عطف على الآية قبلها وهى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ والمراد بـ(أخرى) أى بجانب النعم المذكورة من المغفرة وثواب الجنة فى الآجلة، لكم نعمة أخرى عاجلة محبوبة إليكم فى

---

(١) ينظر المفردات للراغب ص٦٣، والكشاف للزمخشرى، ج٢، ٣٦٤ طبعة ٣ .

(٢) ينظر تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، ج١١، ص٢٦٤، ٢٦٥ .

(٣) ينظر تفسير القرطبى ، ج٨، ص٣٧١ .

الدنيا وهى التى فسرت بقوله تعالى: ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أى فتح عاجل وهو فتح مكة[١]، ففى الآية إخبار بالغيب فالفتح القريب هو النصر العظيم اى نصر فتح مكة، وهذا من إعجاز القرآن الكريم.

ووصف الفتح بأنه (قريب) لتعجيل المسرة، ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ جئ بـ(أخرى) وصفا مؤنثا لتقدير: نعمة ، أى نعمة أخرى تحبونها . وفى (تحبونها) امتنان عليهم بالإعطاء فى الحياة الدنيا قبل إعطائهم نعيم الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ عطف على : ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فى الآيات قبلها من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف آية ١٠، ١١] ولذلك جاء الأمر من الله تعالى للنبى ﷺ بأن يبشر المؤمنين.

يقول الزمخشرى: "فإن قلت: علام عطف قوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾؟ قلت: على (تؤمنون) لأنه فى معنى الأمر، كأنه قيل: آمنوا، وجاهدوا يثبكم الله وينصركم، وبشر يا رسول الله المؤمنين بذلك"[٢].

رأى الزمخشرى أن (بشر) عطف على جمل خبرية فى معنى الأمر، أى أن المؤمنون، وتجاهدون بمعنى: آمنوا وجاهدوا عطف إنشاء على إنشاء.

---

(١) انظر الكشاف ، ج٤ ، ص٥٢٦ .
(٢) الكشاف ، ج٤ ، ص٥٢٧ .

ويقول الطاهر بن عاشور: "والذى استقر عليه رأيى الآن أن الاختلاف بين الجملتين اتصالا ولا انقطاعا، لأن الاتصال والانقطاع أمران معنويان وتابعان للأغراض، فالعبرة بالمناسبة المعنوية دون الصيغة اللفظية"(١) ، وهذا رأى مقنع ووجيه لأن المناسبة المعنوية أهم من الصيغة اللفظية ، والزمخشرى لا ينكر المناسبة المعنوية بين الجملتين كذلك.

قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة ٩٧].

أجمع المفسرون إلى أن هذه الآية نزلت فى اليهود، يقول ابن جرير الطبرى: "وأجمع أهل التاويل جميعا على أن هذه الآية نزلت جوابا لليهود، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم، وأن ميكائيل ولى لهم ... وسبب قولهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله ﷺ من أمر نبوته"(٢).

قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ ﴾ فصل جملة مستأنفة لا علاقة لها بالجمل التى قبلها، وصدرت الآية بـ(قل) لإبطال معذرتهم، أبطل سبحانه أن يكون ذلك العذر هو الذى صرفهم عن الإيمان مع إثبات أن الصارف لهم هو الكراهية والعداوة، وعداوة اليهود لجبريل كانت بسبب نزوله بالقرآن على سيدنا محمد ﷺ ، وقوله: "من كان عدوا لجبريل" شرط عام مراد به خاص، المراد: اليهود، والغرض من الإتيان بالشمول، عدم الاهتمام بهم، ولا بغيرهم من يعادى جبريل.

---

(١) تفسير التحرير والتنوير، ج١٥، ص١٩٧ .
(٢) تفسير الطبرى لابن جرير الطبرى، ج١، ص٤٣١ طبعة دار الفكر بيروت ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.

"والعدو: المبغض وهو مشتق من عدا عليه يعدو بمعنى: وثب، لان المبغض يثب على المبغوض لينتقم منه، وجبريل: اسم عبرانى للملك المرسل من الله تعالى بالوحى لرسله"(١).

قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة ٩٧].

يقول الشوكانى: "الضمير فى قوله: (فإنه) يحتمل وجهين: الأول: أن يكون لله، ويكون الضمير فى قوله: (نزله) لجبريل، أى فإن الله سبحانه نزل جبريل على قلبك ... الثانى: (فإنه) لجبريل، والضمير فى (نزله) للقرآن: أى: فإن جبريل نزل القرآن على قلبك ، وخص القلب بالذكر لأنه موضع العقل والعلم"(٢).

والأحسن الوجه الثانى، وهو أن الضمير فى (فإنه) عائد على جبريل، والضمير فى (نزله) للقرآن، فالفعل لا يصلح إلا له هنا، فالضمير فى قوله (نزله) عائد على ما أنزل الله، وهو أظهر ارتباطا بالمعنى، أما الوجه الأول ففيه ضعف لان المعنى لا يرتبط بقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ عندما يكون الضمير فى (نزله) لجبريل، لذا فالوجه الثانى أحسن.

وجاء بحرف التوكيد فى (فإنه) لانهم منكرون ذلك، فهم ينكرون أنه نزل به من عند الله مصدقا لكتابهم، وأن فيه الهداية والتبشير ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ ﴾.

ويلفت الزمخشرى إلى سر بلاغة التعبير بالإضمار فى (نزله) بقوله: "الضمير فى (نزله) للقرآن، ونحو هذا الإضمار، أعنى إضمار

---

(١) تفسير التحرير والتنوير، ج١، ص٦٢٠ .
(٢) تفسير فتح القدير للشوكانى، ج١ ص١٧٢ طبعة دار التراث الحديث، القاهرة، طبعة أولى .

ما لم يسبق ذكره ــ فيه فخامة لشأن صاحبه حيث يجعل لفرط شهرته كأنه يدل على نفسه ، ويكتفى عن اسمه الصريح بذكر شىء من صفاته"[١].

فالتعبير بالإضمار بدلا من التصريح بالقرآن لفخامة شأنه وكأنه يدل على نفسه لشهرته فهو لم يسبق ذكره، وذكر شيئا من صفاته كونه (مصدقا) التى جاءت حالا من الضمير المنصوب فى (نزله) أى القرآن ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ اللام دخلت للتقوية أى تقوية ذلك التصديق فهو تصديق ثابت مؤكد.

﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ كناية عما سبقه من الكتب، فهو مصدق للكتب السابقة كناية عن السبق، فلا وجه لمعاداة اليهود لجبريل ، وفى هذا دليل على ارتفاع منزلة جبريل.

فقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ هذه الجملة قائمة مقام جواب الشرط فلا موجب لعداوة جبريل . فالله أذنه بالنزول بالقرآن، فمن عاداه فقد عادى الله تعالى . وهذا من وجه الربط بين الشرط والجواب، أى من كان معاديا لجبريل منهم فلا وجه لمعاداته له[٢].

ويوضح الزمخشرى كيف كان قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ﴾ جزاء للشرط قلت: فيه وجهان: أحدهما: إن عادى جبريل أحد من أهل الكتاب فلا وجه لمعاداته حيث نزل كتابا مصدقا للكذب بين يديه، فلو أنصفوا لأحبوه وشكروا له صنيعه فى إنزاله ما ينفعهم ويصحح المنزل عليهم.

---

(١) الكشاف ، ج١، ص١٦٩ .
(٢) فتح القدير للشوكانى، ج١، ص١٧٢ .

والثانى: إن عاداه أحد فالسبب فى عداوته أنه نزل عليك القرآن مصدقا لكتابهم وموافقا له ، وهم كارهون للقرآن ولموافقته الكتب التى أنزلها، والآيات والرسل الذين بعثهم الله، ولذلك كانوا يحرفون القرآن(١).

قوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الهدى: مصدر، وهو مبالغة فى حصول الهدى بالقرآن، والقرآن بشر المؤمنين بالهداية والكمال، وأن الله سيؤتيهم خير الدنيا والآخرة، ولذلك جاء المصدر (بشرى) مبالغة فى التبشير.

قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [سورة يونس ٦٢] . يقول الزمخشرى : ﴿أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة، وقد فسر ذلك فى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس ٦٣] فهو توليهم إياه"(٢).

وقد أكدت الآية بـ(ألا) الاستفتاحية للتنبيه إلى الاهتمام بأولياء الله، وهى تدل على تحقق ما بعدها، ومن هنا تأتى دلالتها على معنى التأكيد(٣) فالخبر طلبى، والغرض منه هنا إظهار فضل الله تعالى على عباده المتقين، ولهذا حسن توكيد الكلام بمؤكد تمكينا للخبر من نفس المخاطب.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس ٦٣] جملة مستأنفة استئنافا بيانيا، ولذلك وردت مفصولة عن الآية السابقة "كأنه قيل: من أولئك، وما سبب فوزهم بما أشار إليه الكلام

---

(١) الكشاف، ج١، ص١٧٠ .
(٢) الكشاف للزمخشرى: ج٢ ص٣٥٥، طبعة بيروت، الطبعة الثالثة.
(٣) ينظر مغنى اللبيب لابن هشام الأنصارى، ج١ ص٦٨ تحقيق محىالدين عبدالحميد، مطبعة المدنى، القاهرة.

السابق؟ فقيل: هم الذين جمعوا بين الإيمان والتقوى المفضين إلى كل خير المجنبين عن كل شر؟ ولك أن تقصر فى السؤال على من أولئك. فيكون ذلك بيانا وتفسيرا للمراد من الأولياء فقط"[١].

ولأنه لا يصح عطف الجواب على السؤال، لذلك فصلت هذه الجملة بشبه كمال الاتصال.

وفى الآية كناية عن رفعة منزلة المتقين، كناية عن صفة، وهى الاطمئنان والأمان، وفيها كثرة المعانى مع إيجاز الألفاظ.

قال تعالى: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [يونس ٦٤] .

فى هذه الآية "قصر" صفة على موصوف بتعريف المسند (الفوز)، وذكر ضمير الفصل (هو) بعد (ذلك) لزيادة التأكيد فما يتنعم فيه المشركون من رزق وقوة فى الحياة الدنيا لا يعد فوزا فعاقبته الهوان فى الدنيا والعذاب فى الآخرة، فلا فوز إلا ما ذكر فى الآية بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ لا غيره، وفى الآية أيضا "فصل" فصلت جملة ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ عن جملة ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ﴾، وسر الفصل أنها تتنزل منزلة عطف البيان، فهى تبين وتذكر المؤمنين "بأن ما عودهم الله من البشائر مثل النصر وحسن العاقبة أمر ثابت لا يتخلف لأنه من كلمات الله ... وجملة ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ مؤكدة لجملة ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ﴾ ومقررة لمضمونها، فلذلك فصلت"[٢].

---

(١) روح المعانى للألوسى، ج١١، ص١٤٧ .
(٢) تفسير التحرير والتنوير، ج١١، ص٢١٩ ، ٢٢٠ .

وهذا يعنى أن بين الجملتين فصل لكمال الاتصالن فقوله تعالى: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ﴾ جملة مبتدأة، أى مستأنفة مبنية على سؤال نشأ من تعدد صفاتهم كأنه قيل: ما لهم بمقابلة هذه الخصال؟ أو هل لهم وراء ذلك من نعمة وكرامة؟ والجواب: قيل ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾[١].

فامتنع العطف بين هذه الآية والآيات التى تقدمتها لامتناع عطف الجواب على السؤال، فسر الفصل شبه كمال ويحتمل أن يكون "كمال الاتصال" على أن الآية بيان وتعليل لنفى أحزانهم والخوف عليهم"[٢].

قال تعالى: ﴿ طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل ١، ٢].

استهلت الآية الكريمة بالحروف المقطعة، وقد اختص القرآن الكريم بهذه الحروف ــ فواتح السور ــ وهذه الظاهرة تميز بها القرآن الكريم، فلا توجد فى أى كتاب آخر.

فمن الحروف المقطعة فى القرآن: طس ــ الم ــ كهيعص ــ حم ــ ن ــ الر ، وغيرها ولم يهتد أحد إلى مفهومها بالتحديد وقد اختلف المفسرون فى تأويل هذه الحروف.

وبادئ ذى بدء ــ كما يقول الشيخ شلتوت ــ إن الحكيم الخبير لا يضع أمرا على محض المصادفة، فإن فى الإتيان بهذه الحروف دون بعض لسرا تقتصر دون إدراكه العقول[٣].

---

(١) روح المعانى للألوسى ج٩، ص١٦٨، ج١١، ص١٥٠ بتصرف.
(٢) ينظر تفسير أبىالسعود، ج٢ ص٥١١ .
(٣) ينظر تفسير القرآن الكريم للشيخ محمود شلتوت ص٦١ طبعة ٤، دار القلم ١٩٦٦م.

ولابن القيم الجوزية رأى طيب، فهو يرى أن فى افتتاح السور بالحروف المقطعة "تنبيه على شرف هذه الحروف، وعظم قدرها، وجلالها. إذ هى مبانى كلامه تعالى وكتبه، التى تكلم سبحانه بها، وأنزلها على رسله وهدى بها عباده ... وأقدرهم على التكلم بها ... وهذا من أعظم نعمة عليهم، كما هو من أعظم آياته"(١).

ولعل الراجح لتأويل هذه الحروف ما قاله الشوكانى: "والذى أراه لنفسى ولكل من أحب السلامة واقتدى بسلف الأمة أن لا يتكلم بشىء من ذلك مع الاعتراف بان فى إنزالها حكمة لله عزوجل لا تبلغها عقولنا ولا تهتدى إليها أفهامنا"(٢).

قال تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾(٣)، وأخبر الباقلانى أن الله سبحانه أنزل القرآن الكريم "ليقع الاهتداء به، ولا يكون كذلك إلا وهو حجة ولا يكون حجة إن لم يكن معجزة"(٤) ، ويرى انه ما من سورة افتتحت بذكر الحروف المقطعة كـ: طسم، الر، كهيعص، حم، وغيرها إلا وتدل على هذه المعجزة، بل إن كثيرا من السور إذا تؤمل "فهو من أوله إلى آخره مبنى على لزوم حجة القرآن والتنبيه على وجه معجزته"(٥) وأرجع الباقلانى جمال النظم إلى عشرة وجوه منها ما يرجع إلى الحروف، وذلك أن "الحروف التى بنى عليها كلام العرب تسعة وعشرون حرفا، وعدد السور التى افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورة،

---

(١) التبيان فى أقسام القرآن لابن القيم الجوزية، ص١٢٧، دار الطباعة المحمدية ٠

(٢) فتح القدير للشوكانى ، ج١، ص٢١ ٠

(٣) سورة آل عمران من الآية ٧ ٠

(٤) إعجاز القرآن لأبىبكر محمد بن الطيب الباقلانى، ص٩ تحقيق السيد أحمد صقر ، ط٤ ٠

(٥) المرجع السابق نفسه ٠

وجملة ما ذكر من هذه الحروف فى أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة وهو أربعة عشر حرفا، ليدل بالمذكور على غيره، وليعرفوا أن هذا الكلام منتظم من الحروف التى ينظمون بها كلامهم ... وأنه لا يجوز أن يقع إلا من الله عزوجل، لأن ذلك يجرى مجرى علم الغيوب"(١).

وقول: "وقد يمكن أن تعاد فاتحة كل سورة لفائدة تخصها فى النظم إذا كانت حروفا كنحو (الم) لأن الألف المبدوءة بها هى أقصاها مطلعا، واللام متوسطة، والميم متطرفة، لأنها تأخذ فى الشفة فنبه بذكرها على غيرها من الحروف، وبين أنه إنما أتاهم بكلام منظوم مما يتعارفون من الحروف التى تتردد بين هذه الطرفين"(٢).

ولذلك فإن نظم القرآن "خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد فى كلام العرب، ومباين لأساليب خطابهم ... ومن ادعى غير ذلك لم يكن له بد من أن يصحح أنه ليس من قبيل الشعر ولا السجع ولا الكلام الموزون غير المقفى"(٣).

فعلى الرغم من أن القرآن الكريم مؤلف من حروف الهجاء التى يستعملها العرب إلا أنهم لا يستطيعون الإتيان بسورة من مثله، ومن هنا تظهر صلة فواتح السور المشتملة على الحروف المقطعة بقضية الإعجاز والبيان لعجزهم عن معارضته بمثله، فهو كلام الله تعالى الخالق القوى القدير وليس كلام البشر.

قال ابن كثير: "إنما ذكرت هذه الحروف فى أوائل السور التى ذكرت فيها بيانا لإعجاز القرآن ، وأن الخلق عاجزون عن معارضته

---

(١) المرجع السابق نفسه ص٤٤، ٤٥ .
(٢) السابق نفسه ص٤٦ .
(٣) السابق نفسه ص٨٠ .

بمثله، هذا مع أنه من هذه الحروف المقطعة التى يتخاطبون بها"[١]، وأضاف قوله: "قلت: ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلابد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء وهو الواقع فى تسع وعشرين سورة"[٢].

معنى الإشارة فى الآية (تلك) : إشارة إلى آيات السورة، أى تلك السورة العظيمة وآيات القرآن عظيم الشأن مبين لسبيل الرشد والغى، أو الإشارة إلى جميع آيات القرآن الكريم ، فالإشارة للفت نظر المكذبين بالقرآن وآياته باستدعائهم للنظر فى دلائل صدق رسول الله ﷺ .

وجاءت الآية الكريمة خالية من التأكيدات لأن هذا الأسلوب ألقى لخالى الذهن والغرض تعظيم شأن القرآن وتفخيم الكتاب، وروعى هنا أنه بعيد فى مكانته، عال فى منزلته، على عن أوهام الخلق وخيالاتهم فنزل بعد المكانة منزلة بعد المكان، وأشير إليه بما يشار به إلى البعيد[٣].

وهنا استعارة أصلية شبه الإشارة إلى القريب بالإشارة إلى البعيد بجامع الاهتمام بالمشار إليه، والإقبال عليه واستعار المشبه به "تلك" من الإشارة للبعيد، للإشارة للقريب على سبيل "الاستعارة" الأصلية، والقرينة حالية[٤] . وتوحى الاستعارة برفعة القرآن الكريم،

---

(١) مختصر ابن كثير المسمى عمدة التفسير للحافظ بن كثير، ج١، ص٧١، ط٣، تحقيق أحمد شاكر ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م.

(٢) السابق نفسه .

(٣) ينظر النبأ العظيم د/ عبدالله دراز، ص٧، طبعة ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.

(٤) ينظر تفسير البحر المحيط لأبىحيان، ج٥، ص١٢٢ .

وأنه عالى المنزلة عظيم الشأن ، فى قوله تعالى: ﴿طسٓ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٖ﴾ ذكر القرآن والكتاب، فهل هناك فرق بينهما؟

فرق الدكتور عبدالله دراز بين القرآن والكتاب بقوله: "روعى فى تسويته قرآنا كونه متلوا بالألسنة، كما روعى فى تسميته كتابا كونه مدونا بالأقلام، فكلتا التسميتين من تسمية الشىء بالمعنى الواقع عليه، وفى تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه فى موضعين لا فى موضع واحد، أعنى أنه يجب حفظه فى الصدور والسطور جميعا ... إنجازا لوعد الله الذى تكفل بحفظه حيث يقول: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[١].

من هذا يتضح الفرق بين القرآن والكتاب، فالتسمية بالقرآن للإشارة إلى حفظه فى الصدور بتلاوته بالألسنة، والتسمية بالكتاب لحفظه فى السطور بتدوينه بالأقلام، وهذا من إعجاز القرآن، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ﴾ [الأنعام آية ٧] فإنه يعنى صحيفة فيها كتابة[٢].

والإضافة قد تكون لتعظيم المضاف وتفخيمه ، كما يقول الزمخشرى: "إضافة الآيات إلى القرآن والكتاب المبين: على سبيل التفخيم لها والتعظيم لأن المضاف إلى العظيم يعظم بالإضافة إليه"[٣] وتنكير (كتاب) للتفخيم . ووجه عطف (كتاب) على القرآن ومفهومها واحد وهذا "كما يعطف إحدى الصفتين على الأخرى فى نحو قولك: هذا فعل السخى والجواد الكريم، لأن القرآن هو المنزل المبارك

---

(١) سورة الحجر الآية ٩، وانظر النبأ العظيم د/ محمد عبدالله دراز، ص٧، ٨ .

(٢) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم للراغب الأصفهانى، ص٤٤٠، طبعة بيروت.

(٣) الكشاف ج٢، ص٣٤٦ .

المصدق لما بين يديه، فكان حكمه حكم الصفات المستقلة بالمدح فكأنه قيل: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾[١].

ويرى الزمخشرى أنه لا فرق بين قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل ١] وبين قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر ١]، من حيث التقديم يقول: "لا فرق بينهما إلا ما بين المعطوف والمعطوف عليه من التقدم والتأخر"[٢] لعل سر التقديم والتأخير فى الآيتين فى سورتى (النمل والحجر) وهما قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾[٤] أن القرآن عبارة عن الكل أو عن الجمع المنزل عند نزول السورة ، ووصف بالقرآنية وفخم شأنه لكونه بديعا فى بابه ممتازا عن غيره بالنظم المعجز، ووصف بالكتابية لاشتماله على أحوال الآخرة التى من جملتها الثواب والعقاب واشتماله على كمال صفات جنس الكتب الإلهية، فكأنه كلها، كأنه كل الكتب.

ففى الآية فى سورة النمل قدم القرآن على الكتاب نظرا إلى تقدم حال القرآنية على حال الكتابية، والسياق فى النمل مع المؤمنين بدليل ما بعده ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ تقدم القرآن وفى ضوء ذلك يفسر التقديم والتأخير ، والعكس فى سورة الحجر قدم الكتاب على القرآن نظرا إلى تقدم حال الكتابية[٥]، والسياق مختلف فالسياق فى الحجر تقدم الكتاب سياق الخطاب مع الكافرين بدليل قوله بعد ذلك ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾.

---

(١) سورة الحجر الآية ١ .
(٢) الكشاف ج٢، ص٣٤٧ .
(٣) سورة النمل الآية ١ .
(٤) سورة الحجر الآية ١ .
(٥) ينظر تفسير أبىالسعود ج٣، ص٢١١، وج٤، ص١٨٥ .

ب ـ بشرى المسلمين:

لم يرد بشرى للمسلمين فى القرآن كله إلا فى سورة النحل فى آيتين فقط فى قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [سورة النحل آية ٨٩].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ١٠٢] .

ج ـ بشارة المتقين :

فقط فى سورة مريم فى قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ [مريم ٩٧].

د ـ بشارة الصابرين:

فى سورة البقرة فقط فى قوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة ١٥٥].

هـ ـ بشارة المخبتين :

فقط فى سورة الحج فى قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ [الحج الآية ٣٤].

و ـ بشارة المحسنين:

أيضا فى سورة الحج بلفظ الأمر فى قوله تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ۗ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الحج ٣٧].

وبلفظ (بشرى) فى قولـــه تعـــالى: ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة الأحقاف الآية ١٢].

ز- التبشير للمجاهدين والمهاجرين:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة التوبة من ٢٠ ــ ٢٢].

ح- التبشير للعباد :

قال تعـــالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [سورة الشورى ٢٣].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [سورة الزمر الآيات ١٧، ١٨].

وقـــال تعـــالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾ [سورة التوبة ٢٠ ، ٢١].

ب- بلاغة التبشير للمسلمين:

قال تعـــالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل ٨٩].

معنى ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾، أى نبيا يشهد عليهم ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ من جنسهم، إتماما للحجة وقطعا للمعذرة، وهذا تكرير لما سبق لقصد التأكيد والتهديد ﴿وَجِئْنَا بِكَ ﴾ يا محمد ﴿شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ﴾ أى تشهد على هذه الأمم وتشهد لهم ... ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ أى القرآن، والجملة مستأنفة أو فى محل نصب على الحال بتقدير: قد ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى: بيانا له، والتاء للمبالغة"[١].

يقول الزمخشرى: "فإن قلت: كيف كان القرآن ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾؟ قلت: المعنى أنه بين كل شىء من أمور الدين، حيث كان نصا على بعضها وإحالة على السنة، حيث أمر فيه بإتباع رسول الله ﷺ وطاعته .. فمن ثم كان ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾"[٢].

فمعنى كونه ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ أنه يبين الأحكام الكثيرة ويأمر بإتباع الرسول ﷺ وطاعته، والقرآن الكريم ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ للعباد ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ "خاصة دون غيرهم"، أو يكون الهدى الرحمة والبشرى خاصة بهم، لأنهم المنتفعون بذلك"[٣].

وسياق الآية يدل على حذف فعل تقديره (واذكر) أى: واذكر يوم نبعث فى كل أمة شهيدا. أو فى الآية حذف جملة تقديرها: (لاقوا مصيرهم) وهذا وعيد الكافرين يوم القيامة.

وعبر سبحانه بـ(شهيدا) بدلا من: شاهدا، لأن (شهيدا) صيغة مبالغة، فهو يشهد للمؤمنين بالإيمان الصادق، ويشهد على الكافرين بكفرهم وجحودهم وتكذيبهم، فذكر (شهيدا) تأييدا للنبى أمام المكذبين

---

(١) فتح القدير للشوكانى، ج٣ ، ص٢٦٥ .
(٢) الكشاف ج١ ص٦٢٨ .
(٣) فتح القدير ج٣، ص٢٦٥ .

ولطمأنته على دعواه، ولما كانت الرسالة محل تكذيب من المشركين، واحتاج النبى ﷺ إلى شهادة، أغناه الله سبحانه عن شهادة شاهد، وأيده وبعثه ﴿شَهِيدًا عَلَيْهِم﴾ و﴿شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾.

والتعبير باسم الإشارة (هؤلاء) يشعر بعلو منزلة المؤمنين وتعظيمهم، وقد يقصد إلى تحقير الكافرين لبعدهم عن إتباع رسول الله ﷺ ، فلم يعبر بالاسم الظاهر بدلا من الإشارة تحقيرا بشأنهم.

والتعريف فى (الكتاب) تفخيما لأمره، ووضع المصدر (هدى) لأنه أوغل فى التعبير عن استمرار الهدى ودوامه، ولا يعبر عن هذا المعنى الوصف المشتق (هاد) فكان وضع (هدى) أبلغ.

والسر البلاغى فى ذكر ــ المسلمين ــ هنا والمؤمنين ــ هناك أن البشرى هنا خاصة للمسلمين دون غيرهم لأنهم استسلموا وانقادوا لسلامة فطرتهم إلى الكمال فى أمور دنياهم ودينهم، وفيه تعريض بالكافرين بحصول أضداد صفات الهدى والبشرى.

فالإسلام فيه مع الاعتراف اعتقاد بالقلب ووفاء بالفعل واستسلام لله فى جميع ما قضى وقدر كما فى قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة ١٣١].

قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل ١٠٢].

هذه الآية بين للمعترضين على حكمة النسخ وجهلهم بذلك وأن القرآن مختلق ومفتر من رسول الله ﷺ تبين لهم أن القرآن الكريم نزله جبريل عليه السلام المطهر فقال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾

نزل من عند سبحانه ﴿مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ ثابتا لحمة بالغة ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ على الإيمان(١).

يقول الزمخشرى: ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ليبلوهم بالنسخ، حتى إذا قالوا فيه: هو الحق من ربنا والحكمة، حكم لهم بثبات القدم وصحة اليقين، وطمأنينة القلوب، على أن الله حكيم فلا يفعل إلا ما هو حكمة وصواب ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ﴾ .. معطوفان على محل (فيثبت) والتقدير: تثبيتا لهم وإرشادا وبشارة"(٢) وبدأت الآية بقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ للحث على الطاعة، والتحذير من المعصية، والتقريع للمكذبين.

وفصلت هذه الجملة عن الجملة التى قبلها لأن الثانية وهى قوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ بيان للأولى أى التى قبلها، فهى موضحة لها، فالفصل لكمال الاتصال ويحتمل أن تكون هذه الجملة جواب عن سؤال يفهم من الأولى وهو: من نزل القرآن؟ وهل هو من عند الله؟ فكان الجواب: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾.

ولذلك فصلت هذه الجملة عما قبلها للارتباط الشديد وهو ارتباط الجواب بالسؤال بما يعرف بشبه كمال الاتصال وفى تبشير المسلمين بالتثبيت والإرشاد واطمئنان قلوبهم تعريض بالكافرين المكذبين لرسول الله ﷺ بعدم استحقاقهم هذه البشرى.

ج ـ التبشير للمتقين:

قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم ٩٧].

---

(١) انظر فتح القدير للشوكانى، ج٣، ص٢٧٤.
(٢) الكشاف ج٢، ص٦٣٥.

هذه الآية ختام السورة فكأنه قال: بلغ ما أنزلنا إليك أو بشر به المتقين وأنذر المشركين بسوء العاقبة، فإنما أنزلناه (بلسانك) أى: بلغتك وهو اللسان العربى المبين وسهلناه وفصلناه ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ المتصفين بالتقوى لامتثال ما فيه من الأمر والنهى ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ وهم الذين لا يؤمنون بالقرآن لجاجا وعنادا. واللد: الشداد الخصومة بالباطل والجدال لفرط لجاجهم، والمراد بهم: أهل مكة[١] ، والفاء فى (فإنما) جاءت "لتعليل أمر ينساق إليه النظم الكريم كأنه قيل: بعد إيحاء هذه السورة الكريمة بلغ هذا المنزل، وأبشر به، وأنذر، فإنما يسرناه بلسانك العربى المبين ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ .. ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾[٢] وضمير الغائب فى (يسرناه) عائد إلى: القرآن، دل عليه السياق وهذا ثناء على القرآن بتيسيره وتسهيله للقراءة ٠

وفى التعبير (بلسانك) أى: بلغتك، مجاز مرسل علاقته الآلية (فكر اللسان) وأراد الأثر الناتج عنه وهو (اللغة) ، فاللسان هو الآلة الظاهرة للغة٠

وفى الآية مقابلة بين (المتقين والقوم اللد)، فالتقوى طاعة والشرك عصيان ولدد، وجدال٠

والتعبير بقوله: ﴿قَوْمًا لُّدًّا﴾ فيه تعريض بالكفار وعنادهم لعلمهم بصدق ما جاء به النبى ﷺ وأنه حق، وإطلاق بصدق ما جاء به النبى ﷺ وأنه حق وإطلاق لفظ (القوم) عليهم لإفادة أن اللدد والجدال والمراء شأنهم ، وصفتهم التى عرفوا بها، ووضح فى الآية

---

(١) انظر الكشاف ج٣، ص٤٨، وروح المعانى للألوسى، ج١٦، ص١٤٣ ٠

(٢) روح المعانى للألوسى ، ج١٦ ص١٤٣ ٠

قصر الصفة على الموصوف، قصر تيسير القرآن على اللسان، وهذا معلوم وآثر فنا ذكر المتقين لأن الآية جاءت فى ختام سورة مريم التى أشبعت الحديث عن ذكر من بلغوا القمة فى الإيمان والاعتقاد من النبيين وغيرهم ومن بلغوا القمة كذلك فى الكفر والعناد. فكان من المناسب أن يعبر عن الصنف الأول بالمتقين، وعن الثانى بالقوم اللد .

د ـ التبشير للصابرين:

قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة ١٥٥ ــ ١٥٧].

(ولنبلونكم) عطف على ما قبله وهو قوله تعالى: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ ﴾، والبلاء: الاختبارن يقول الزمخشرى: (ولنبلونكم) ولنصيبنكم بذلك إصابة تشبه فعل المختبر لأحوالكم، هل تصبرون وتثبتون على ما أنتم عليه من الطاعة وتسلمون لأمر الله وحكمه أم لا؟ (بشىء) بقليل من كل واحد من هذه البلايا ... ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ : المسترجعين عند البلاء ــ أى الذين يقولون: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ ــ لأن الاسترجاع تسليم وإذعان"[1].

فالمصائب لتثبيت الإيمان، والتسليم لقضاء الله ليزداد المؤمن يقينا بأن اتباع الدين ليس لحظ فى الدنيا، وإنما محبة لله ولثواب الآخرة، ولذلك قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ وهو أمر للنبى ﷺ ، أو لكل من يتأتى منه التبشير ــ وتنكير (شىء) للتهوين ليهون ويخفف

---

(١) الكشاف للزمخشرى: ج١ ، ص٢٠٧ .

عليهم، وللتقليل لبيان رحمته سبحانه بالبلاء بالقليل من تلك الأمـــور والمراد بنقص الثمرات: ما يصيبها من هلاك ٠

والعطف فى (الثمرات) من عطف الخـــاص علـــى العـــام، لأن الأموال تشمل الثمرات وغيرها. وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَإِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ "فيه بيان أن هذه الكلمات ملجـــأ للصـــابرين وعصمة للمتحنين، فإنها جامعة بين الإقرار بالعبودية، والاعتـــراف بالبعث والنشور"(١)٠

وفائدة وصف الصابرين بأنهم ﴿ٱلَّذِينَإِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ هو بيان أن صبرهم صبر قوى جميل، فالمراد مـــن القول فى الآية : أن قولهم مطابق لاعتقادهم وإيمانهم، وأنهم عنـــد المصيبة يصرحون بذلك تعليما للناس لهذا القول عند البلاء، وإعلانا للاعتقاد الصادق . والتوكيد (بيان) فى (إنا لله) للاهتمام، حيث نـــزل المصاب منزلة من ينكر أنه ملك لله تعالى، واللام فى (الله) للملـــك . وقدم الجار والمجرور فـــى ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ للقصـــر، فـــنحن راجعون إليه سبحانه، وإننا ملك لله تعالى يتصرف فينا كيف يشـــاء، فلا نجزع مما يأتينا أو يصيبنا ٠

وتقديم الضمير (هم) فى ﴿هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ لقصر الهداية وهى مسند معرف على الصابرين ونفيـــه عـــن غيـــرهم، فالتقـــديم هنـــا لتخصيصهم بالهداية، وتنكير (صلوات ورحمة) للتكثير والتعظيم ٠

---

(١) فتح القدير للشوكانى ، ج١ ، ص٢٣٤ ٠

"والصلاة: الحنو والتعطف، فوضعت موضع الرأفة وجمع بينها وبين الرحمة كقوله تعالى: (رأفة ورحمة) ، (رءوف رحيم) والمعنى: عليهم رأفة بعد رأفة ورحمة أى رحمة"(١).

وفى قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾ المسند إليه (أولئك) مشار به إلى الصابرين، وقد ذكرت لهم أوصاف هى: حصول الصلوات والرحمة والهدى لمن صبر، بطريقة التبشير من الرسول ، ثم أشير إليهم بـ(أولئك) ـ مع أن المقام للضمير للتنبيه على أن المشار غليهم يستحقون تلك الأوصاف التى ذكرت بعد اسم الإشارة من العطف والرحمة والهداية، فهذا بيان لجزاء صبرهم حيث سلموا لأمر الله تعالى ولذلك جاء التعبير باسم الإشارة فى الآية (أولئك) مرتين لقصد "التنبيه على أن المشار إليه المعقب بأوصاف جدير من أجل تلك الأوصاف بما يذكر بعد اسم الإشارة"(٢).

والتبشير جاء على لسان الرسول ﷺ تكريما لمكانته وزيادة فى تعلق المؤمنين به كما ذكر الطاهر بن عاشور(٣) بحيث تحصل خيراتهم بواسطته، فلذلك كان من لطائف القرآن التعبير بـ(لنبلونكم) بنزول البلوى من الله دون واسطة الرسول، وإسناد التبشير بالخير الآتى من قبل الله إلى الرسول ﷺ .

وقد حثنا الله سبحانه على الصبر قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة ١٥٣] فقوله تعالى:

---

(١) الكشاف، ج١ ، ص٢٠٨ .

(٢) الإيضاح للخطيب القزوينى، ص٧١، ٧٢، طبعة ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، وينظر معانى التركيب د/ عبدالفتاح لاشين ج١، ص١٩٥، طبعة ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

(٣) ينظر التحرير والتنوير، ج٢، ص٥٧ .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ كناية عن الإحاطة الشاملة من الله سبحانه للصابرين بلا حيز ولا جهة، ولكن برحمته ولطفه وقدرته فالآية "فيها أعظم ترغيب لعباده سبحانه إلى لزوم الصبر على ما ينوب من الخطول فمن كان الله معه، لم يخش من الأهوال، وإن كانت كالجبال"(١).

هـ- التبشير للمخبتين:

قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج الآية ٣٤].

قال الزمخشرى: "شرع الله لكل أمة أن ينسكوا له أى يذبحوا لوجهه على وجه التقرب، وجعل العلة فى ذلك أن يذكر اسمه تقدست أسماؤه على النسائك .. ﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ أى أخلصوا له الذكر خاصة، واجعلوه لوجهه سالما، أى خالصا لا تشوبوه بإشراك.

والمخبتون: المتواضعون الخاشعون، من الخبت وهو المطمئن من الأرض، وقيل: هم الذين لا يظلمون، وإذا ظلموا لم ينتصروا"(٢) و(نا) فى (جعلنا) هو ضمير الجلالة بدليل قوله: ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾، وجاء (منسكا) نكرة، والتنكير فيه للإفراد أى منسكا واحدا غير متعدد. و(على) بمعنى لام التعليل: أى يذكروا اسم الله لأجل ما رزقهم. وفى الآية التفات فى قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ التفات من التكلم إلى الغيبة، فقد عبر عن المعنى أولا بطريقة التكلم فقال: (جعلنا) أسند الجعل إلى ضمير الجلالة ثم

---

(١) فتح القدير، ج١، ص٢٣٤ .
(٢) الكشاف، ج٣ ، ص١٥٧ .

التفت فعبر ثانيا عنه بطريق الغيبة فى قوله: ﴿لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ بالاسم الظاهر (الله) ، ولم يقل: اسمنا، فالانتقال إلى الاسم الظاهر (الله) هو من قبيل الغيبة[١].

وذكر لفظ الجلالة (الله) يوحى بالالتزام بما أمر به الله من ذكر اسمه تعالى على النسائك وفى قوله: ﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ﴾ تقديم تقدم المجرور، وذلك للحصر بمعنى: أسلموا له سبحانه لا لغيره. ولأن الإسلام هو إخلاص وطاعة لله، وحث على ترك مناسك الجاهلية التى تقربوا بها لغير الله، كان فى التعبير بـ﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ﴾ تعريضا بالمشركين، والرد عليهم.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ وهم المؤمنون المتواضعون، فالله سبحانه لا يحب كل متكبر ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (الحديد ٢٣)، والمخبت: المتواضع الذى لا تكبر عنده، وأصل المخبت: من سلك الخبت، وهو المكان المنخفض ضد المصعد، ثم استعير للمتواضع كأنه سلك نفسه فى الانخفاض"[٢] فى التواضع من سمات المؤمنين لذا استحقوا التبشير ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾، أما التكبر فشيمة المشركين.

وآثر هنا ذكر ــ المخبتين ــ لأن أصل الإخبات ــ المطمئن من الأرض ــ والآية تعبر عن مناسك الحج من أبرز مظاهره الجلوس والنوم والطواف والسعى والرمى وكلها مناسك يفعلها الحاج على أرض مكة، وفى أوديتها، وكل ذلك يؤول إلى معنى التواضع الذى هو سمة من سمات الحجاج، حيث لا فرق بين وزير وخفير فى الملبس

---

(١) انظر تعبير الحق عن ذاته، د/عزالدين على السيد، ص٩٥، طبعة أولى، دار الطباعة المحمدية بالأزهر ـ القاهرة ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.
(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، ج١٧ ص٢٥٩ .

أو فى الأوامر والنواهى، لا فى الزمان ولا فى المكان المخصوصين لذلك.

و- التبشير للمحسنين:

قال تعالى:﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [الحج٣٧].

هذه الآيات تتحدث عن المضحين أصحاب اللحوم والمتصدقين بها "والمعنى لن يرضى المضحون والمقربون ربهم إلا بمراعاة النية والإخلاص والاحتفاظ بشروط التقوى فى حل ما قرب به ... فإذا لم يراعوا ذلك، لم تغن عنهم التضحية والتقريب"(١).

ولذلك قال تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡ ﴾ أى لن ينفع الله اللحوم المتصدق بها ولا دماؤها، ولكن يرضيه سبحانه التقوى، وبين (ينال)، و(يناله) مشاكلة.

استعير النيل ــ الأخذ ــ لعلم الله ، شبه علم الله لتقواهم بأخذ الشىء ووصوله إلى الله، والمشاكلة حسنت هذا التشبيه، وفى التعبير بـ﴿ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡ﴾ إطناب فلم يقلك قواكم، أو (التقوى) فقط دون (منكم) لأن الإطناب بزيادة (منكم) فيه زيادة بلاغة وتوضيح للمعنى.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ ﴾ تكرير لما قبله وهو: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ﴾ وحسن التكرار للتأكيد والتقرير بما أنعم الله به على عباده. وقد قيل: "إن الكلام إذا تكرر تقرر"(٢) وفى التعبير بـ﴿سَخَّرَهَا لَكُمۡ ﴾ إعجاز وبيان لقدرة الله سبحانه حيث "سخر لهم

---

(١) الكشاف، ج٣، ص١٥٩ .

(٢) البرهان للزركشى، ج٣، ص١٠، وفى علم المعانى د/ حمزة الدمرداش، ج٢، ص١٤٦ .

البدن ... يأخذونهما منقادة للأخذ طيعة فيعلقوها ويحبسونها صافة قوائمها، ثم يطعنون فى لبانها، ولولا تسخير الله لم تطق، ولم تكن بأعجز من بعض الوحوش التى هى اصغر منها جرما"[١] و(على) فى قوله: ﴿لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ للاستعلاء المجازى بمعنى التمكن من النحر ٠

والمعنى: "لتشكروا الله على هدايته إياكم ... بأن تكبروا وتهللوا فاختصر الكلام بأن ضمن التكبير معنى الشكر"[٢] و(ما) موصولة، وهنا العائد محذوف مع جاره، والتقدير: ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ إليه من الأنعام٠

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الخطاب للمسلمين الذين يخلصون النية ويعملون على إعلاء دين الله ومناسك حجه، والخطاب بـ(المحسنين) جاء على خلاف مقتضى الظاهر حيث وضع الظاهر (المحسنين) موضع الضمير (هم) ، وفى إظهار لفظ (المحسنين) تقرير لهم وإثبات ان هذه الأفعال لا تكون إلا من محسن، فجاء على خلاف مقتضى الظاهر للإشارة إلى تحقيق الهداية تمكينا لهذا الاسم، وأنهم أحسنوا فاستحقوا التبشير٠

وآثر هنا لفظ ــ المحسنين ــ لأن هذه الاية جاءت فى ختام الحديث عن مناسك الحج، وكيف أن الحجاج والمضحين ترقوا فى درجات الطاعة والإيمان، من البعد عن الشرك وقول الزور وعظموا شعائر الله، فذكروا الله وصبروا على الشدائد وأقاموا الصلاة وأنفقوا من رزق الله وتجاوزوا مرتبة التقوى إلى مرتبة الإحسان وهى أعلى مرتبة يصل إليها المؤمن٠

---

(١) الكشاف ج٣، ص١٥٩ ٠
(٢) السابق نفسه ٠

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأحقاف ١١، ١٢].

قال كفار مكة للمؤمنين: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ﴾ أرادوا أن عامة من يتبع محمد السقاط الفقراء ... فلو كان ما جاء به خيرا ما سبقنا إليه هؤلاء[1] . وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ ﴾ (إذ) لابد لها من عامل، ولا يستقيم أن يكون العامل فى الظرف هو (فسيقولون) لتعارض معنى المضى والاستقبال، ودخول الفاء السببية دلت على محذوف .

يوجه الزمخشرى هذا الكلام بقوله: "العامل فى (إذا) محذوف لدلالة الكلام عليه ... وتقديره: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ ﴾ ظهر عنادهم ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾[2] والاستقبال فى (فسيقولون) يشعر بدوام ما مضى، أى قالوا: هذا إفك قديم وداوموا على ذلك إصرارا وعنادا وجاءت جملة ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا ﴾ معطوفة على ما قبلها لارتباطها بها فى إبطال مزاعم الذين كفروا، فهى تذكرهم بمثيل القرآن وهو ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ ﴾ أى التوراة، والضمير فى (من قبله) عائد إلى القرآن، و﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ ﴾ خبر مقدم، قدم للاهتمام بهذا الخبر، أى أنهم قد بلغتهم رسالة موسى، مما يبطل زعمهم أن يوحى الله إلى محمد ﷺ ، ورفضهم لذلك. والإضافة فى قوله تعالى: ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ ﴾ للتذكير بأنه كتاب أنزل على بشر فلا عجب أن ينزل القرآن على محمد، ولذلك كانت الإضافة أفضل، فلم يقل سبحانه: (ومن قبله

---

(١) الكشاف ، ج٣، ص٣٠٠ .
(٢) السابق نفسه ص٣٠١ .

التوراة) بل قال: ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾، و﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ حالان من ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ أو من موسى "ومعنى (إماما): قدوة يؤتم به فى دين الله وشرائعه، كما يؤتم بالإمام (ورحمة) لمن آمن به وعمل بما فيه (وهذا) القرآن ﴿كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ لكتاب موسى[1].

و(هذا) إشارة إلى أن القرآن كالحاضر، فهو حاضر بالذكر، و﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أى أن القرآن الكريم نزل باللغة العربية أفصح اللغات وأشرفها ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾، وإسناد الإنذار إلى الكتاب: مجاز عقلى ، فالفعل لم يسند إلى فاعله الحقيقى وإنما أسند إلى مصدره (الكتاب) مجازا، فحذف الفاعل الأصلى للمشابهة بين الفاعل الحقيقى والمجازى فى أن الفعل يتعلق بهما.

وقوله تعالى: ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ هذه الجملة بمنزلة التتميم للمبالغة فى مدحهم لالتزامهم بالقرآن الكريم والعمل به، وإذا كان القرآن بشرى للمحسنين الذين بلغوا المكانة السامية فى الاعتقاد والعمل، فإن المقابلة بينهم وبين الذين ظلموا تدل على أنهم بلغوا كذلك نهاية الظلم والكفر والعناد.

تبشير المجاهدين والمهاجرين:

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (التوبة ٢٠ ــ ٢٢).

جاء التعبير باسم الموصول فى بداية هذه الآية: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ ﴾ للدلالة على نوع الخبر ومعرفته أى هم ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً

---

(١) السابق نفسه.

عِندَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ لهم الثواب العظيم عند الله ، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ ضمير الفصل فى الآية أفاد القصر، قصر صفة على موصوف، قصر صفة الفوز على المتصفين بالصفات المذكورة، أى هم المختصون بالفوز دون غيرهم، فالمشار إليه بـ(أولئك) المقصور عليه، و(الفائزون) المقصور وضمير الفصل (هم) توسط بين المسند والمسند غليه وهو أداة القصر، ثم ذكر سبحانه الفوز بقوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾، والتذكير فى (رحمة، ورضوان، وجنات) أفاد التعظيم وفى الآية: لف ونشر فبعد أن وصف سبحانه المؤمنين بثلاث صفات فى الآية السابقة وهى: الإيمان، والهجرة، والجهاد بالنفس والمال ، بدأ فى هذه الآية بالرحمة فى مقابلة الإيمان لتوقفها عليهن وثنى بالرضوان فى مقابلة الهجرة وترك الأوطان، وذكر ثالثا الجنات فى مقابلة الجهاد الذى تبذل فيه النفس والأموال، فهذا تبشير للمجاهدين بأموالهم وأنفسهم بان لهم جنات ﴿فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ﴾ نعيم يفوق وصف الواصفين دائم مستمر، وذكر (أبدا) بعد (خالدين) تأكيد للخلود، كذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ تأكيد لما قبلها وهى متضمنة للتعليل "أى أعطاهم الله سبحانه هذه الأجور العظيمة لكون الأجر الذى عنده عظيم يهب منه ما يشاء لمن يشاء، وهو ذو الفضل العظيم"(١).

التبشير للعباد:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [سورة الزمر الآية ١٧ ــ ١٨].

---

(١) فتح القدير للشوكانى، ج٢، ص٤٨٢ .

الآية معطوفة على قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر آية ١٥]، وعبر عن المؤمنين باسم الموصول فى قوله: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾ للدلالة على تعظيم شأن الخبر وهو قوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾ .

و(الطاغوت) من الطغيان أطلقت على الشيطان أو الشياطين، وتاء طاغوت زائدة للمبالغة فى المصدر[١] وفصلت جملة ﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ عن جملة ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾ لأنها بدل اشتمال من الطاغوت، لأنها أدل على المعنى المقصود من الأولى لان الغرض إثبات اجتناب أن يعبدوا الطاغوت، وعطفت جملة ﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ على ﴿اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾ لأنها خبرية لفظا ومعنى، ولذلك عطفت الثانية عليها لاتفاقهما فى الخبرية، ووجب الوصل.

يقول الإمام عبدالقاهر: "واعلم أنه إذا كان المخبر عنه فى الجملتين واحدا كقولنا: هو يقول ويفعل، ويضر وينفع ... وجعلته يفعلهما معا، ولو قلت: يضر ينفع من غير واو، لم يجب ذلك، بل قد يجوز أن يكون قولك: (ينفع) رجوعا عن قولك: (يضر) وإبطالا له"[٢].

وفى قوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾ تقدم المسند (لهم) لإفادة القصر ــ أى هم مبشرون بالثواب لا غيرهم. ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ "الله عزوجل يبشرهم بذلك الثواب فى وحيه على ألسنة رسله، وتتلقاهم الملائكة عند حضور الموت مبشرين وحين يحشرون ... وأراد بعباده ﴿الَّذِينَ

---

(١) انظر الكشاف ج٣، ص١٢٠، تفسير التحرير، ج٢٣، ص٣٦٤ .
(٢) دلائل الإعجاز عبدالقاهر الجرجانى، ص١٤٨، طبعة صبيح، ط١، تعليق المراغى.

﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ الذين اجتنبوا وأنابوا لا غيرهم، وإنما أراد بهم أن يكونوا مع الاجتناب والإنابة على هذه الصفة، فوضع الظاهر موضع الضمير"[١] ، فلم يقل: فبشرهم، عدل عن الآيتان بضميرهم إلى الإظهار، وقال: (عباد) زيادة فى مدحهم بصفة العبودية لله أى التقرب له سبحانه ومدحهم بأنهم يستمعون القول ويتبعون أحسنه، ولعل التبشير بالعباد هنا لأنهم الذين حققوا المرتبة الأولى فى اختيارهم لمراد الله من اجتناب الطاغوت والإنابة إلى الله عزوجل، فهم الذين استمعوا إلى القول الحسن واتبعوه، فتحققت فيهم مرتبة العبودية، والتعريف فى (القول) للجنس، والمراد يستمعون الأقوال ويتبعون الحسن منها "وقيل: يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن، وقيل: يستمعون أوامر الله فيتبعون أحسنها، نحو القصاص والعفو"[٢].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ هذه الجملة مستأنفة لتنبه الذهن لتلقى الخبر، والإتيان باسم الإشارة لزيادة الاهتمام، وكذلك اسم الموصول للتنبيه إلى أن اتباع أحسن القول كان سببا فى أن هداهم الله ، وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ﴾ قصر صفة على موصوف، قصر لتعريف الجزئين حيث قصر الهداية عليهم دون غيرهم دون الخاسرين ٠

وكذلك قوله: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ قصر صفة على موصوف لتوسط ضمير الفصل بين المسند والمسند إليه، فأداة القصر (هم)، والمقصور عليه: المشار إليهم بـ(أولئك) والمقصور: ﴿أُو۟لُوا۟

---

(١) الكشاف ج٣، ص١٢٠ ٠
(٢) الكشاف، ج٣، ص١٢١ ٠

ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾، قصر الهداية على ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ وفى الآية تعريض بالكفار أنهم لا عقول لهم.

التبشير للعباد:

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [الشورى ٢٣].

اسم الإشارة (ذلك) جاء تأكيدا لما قبله فى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [الشورى ٢٢]، أى ذلك المذكور الذى هو فضل يحصل لهم فى الجنة هو أيضا بشرى لهم من الحياة الدنيا(١) وحذف الجار وتقديره (به) "والأصل: ذلك الثواب الذى يبشر الله به عباده"(٢).

وجمع (عباده) المضاف إلى ضمير الله تعالى غلب إطلاقه فى القرآن للتقريب ولرفع شأنهم، ولذلك جاء موقع ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ عطف بيان، فقد بين جملتى: لما بينهما من كمال الاتصال، فالثانية عطف بين من الجملة الأولى لانها تتحد معها فى المعنى وموضحة لها وأيضا قوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ جملة فضلت عن التى قبلها فهى مستأنفة لشبه كمال الاتصال لأنها جواب عن سؤال ورد عنهم، أو لأنها تضمنت أمرا يهتم بإبلاغه إليهم، جاءت مستأنفة استئناف ابتدائى لا اتصال لها بما قبلها.

ومعنى قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾، "لا أسألكم على القرآن جزاء إلا أن تودونى أى أن تعاملونى معاملة

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ج٢٥ ص٨٠ .
(٢) الكشاف ج٣، ص٢١٩ .

الود، لأجل القرابة التى بيننا فى النسب القرشى"[١] ، فالضمير فى (عليه) يعود إلى القرآن، و(فى) للظرف المجازى أى للتعليل، لان مجرور (فى) وهو (القربى) لا يصلح لأن يكون مظروفا فيه على الحقيقة.

يقول الزمخشرى: "فإن قلت: هلا قيل : إن مودة القربى، أو إلا المودة للقربى، وما معنى قوله : ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾؟ قلت: جعلوا مكانا للمودة ومقرا لها، كقولك: لى فى آل فلان مودة، ولى فيهم هوى وحب شديد ، تريد: أحبهم وهو مكان حبى ومحله ، وليست (فى) بصلة للمودة، كاللام إذا قلتك إلا المودة للقربى، إنما هى متعلقة بمحذوف تعلق الظرف به فى قولك: المال فى الكيس وتقديره: إلا المودة ثابتة فى القربى ومتمكنة فيها"[٢].

والاستثناء فى ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ يجوز أن يكون استثناء متصلا أى: لا أسألكم جزاءا إلا أن تودونى، ويجوز أن يكون استثناء منقطعا أى: لا أسألكم جزاء قط ز وقد يرجح الاستثناء المنقطع لأن المودة لأجل القرابة ليست من الجزاء على تبليغ الدعوة بالقرآن كما يقول الطاهر بن عاشور[٣]، ولكنها مما تقتضيه المروءة فليس استثناء المودة من الأجر المنفى استثناء حقيقيا، والمعنى: لا أسالكم أجرا على التبليغ وأسألكم المودة لأجل القربى[٤].

وقد جاء التذليل بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ ليوضح معنى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ﴾ ويؤكده، وبين (حسنة،

---

(١) تفسير التحرير والتنوير، ج٢٥، ص٨٠ .
(٢) الكشاف ج٣، ص٢١٩ .
(٣) انظر التحرير، ج٢٥، ص٨٢ .
(٤) الكشاف ج٣ ص٢٢١ .

وحسنا) جناس اشتقاق، فالحسنة من الحسن فهى مماثلة له ومأخوذة منه، وذكر الزمخشرى: أن الحسنة هى المودة ن وكأن سائر الحسنات لها توابع، وزيادة حسنة من الله مضاعفتها، وفسر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ بان "الشكور فى صفة الله: مجاز للاعتداد بالطاعة"(١) والجملة تذييل. والتعبير بصيغتى المبالغة (غفور، شكور) لتأكيد أن الله كثير المغفرة، ترغيب فى التوبة والاستغفار لمن يقترف السيئات وألا يقنط من رحمة الله، ويحثنا سبحانه على طاعته فيرضينا.

(١) المرجع السابق نفسه.

المبحث الثانى
التبشير والتهكم

آيات التبشير والتهكم:

أ ـ تبشير الكافرين:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران الآية ٢١].

قال تعالى: ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة آية ٣].

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [لقمان الآية ٧].

قال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الجاثية آيتان ٧، ٨].

قال تعالى: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الانشقاق آيات ٢٢ ــ ٢٤].

ب ـ تبشير المنافقين : فقط فى سورة النساء :

قال تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء ١٣٨، ١٣٩].

ج ـ تبشير الكانزين: فقط فى سورة التوبة :

قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة الآية ٣٤].

أولا: تبشير التهكم بالكافرين:

التهكم فى اللغة عبارة عن شدة الغضب على المتهكم به، لما فيه من إسقاط أمره، وحط منزلته، وهو كثير فى القرآن الكريم خاصة عند ذكر الكفار والمنافقين والكانزين.

فقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران ٢١، التوبة ٣٤]، البشارة تكون فى الخير، وهنا جاء التبشير فى الشر.

"أن الذى يقوم لهم مقام البشارة عذاب أليم"(١) وهذه الصورة الاستعارة التهكمية، وعرفها السكاكى بأنها: "استعارة اسم أحد الضدين، أو النقيضين للآخر "بواسطة انتزاع شبه التضاد، وإلحاقه بشبه التناسب بطريق التهكم أو التلميح .. ثم ادعاء أحدهما من جنس الآخر ... ويخص هذا النوع باسم الاستعارة التهكمية أو التمليحية"(٢) .

وفى المطول: (الاستعارة التهكمية والتمليحية) "هما ما استعملا فى ضده أى الاستعارة التى استعملت فى ضد معناها الحقيقى أو نقيضه نحو: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة ٣٤] أى: أنذرهم استعيرت البشارة التى هى الإخبار بما يظهر سرور المخبر به للإنذار

---

(١) معانى القرآن للنحاس، ج١، ص٤٩٧ .

(٢) مفتاح العلوم للسكاكى: ص٢٠٦، ط٢، مطبعة الحلبى بمصر، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.

الذى هو ضدها بإدخاله فى جنسها على سبيل التهكم، وذكر العذاب قرينة على أن بشر استعارة، وكذا قولك: رأيت أسدا، وأنت تريد جبانا على سبيل التمليح أو الظرافة أو الاستهزاء"(١).

وقد وجه العلامة البنانى الاستعارة فى قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران الآية ٢١] وبين نوع التهكم والتمليح، فقال: "أى أنذرهم استعيرت البشارة التى هى الإخبار بما يظهر سرورا فى المخبر للإنذار الذى هو ضده بإدخال الإنذار فى جنس البشارة على سبيل التهكم والاستهزاء ، وكذلك: رأيت أسدا، وأنت تريد جبانا على سبيل التمليح والظرافة، ولا يخفى امتناع التبشير والإنذار فى جهة واحدة، وكذلك الشجاعة والجبن"(٢).

"فالفرق بين التهكم والتمليح أن الداعى فى الأول هو تبكيت المتهكم منه، والداعى فى الثانى الفكه والتطرف، فالأول جاد، والثانى هاذر"(٣) . فهناك فرق بين الاستعارة التهكمية والتمليحية. "فإذا كان الغرض الحامل على استعمال اللفظ فى ضد معناه الاستهزاء والسخرية بالمقول فيه، كانت تهكمية ، وإذا كان الغرض بسط

---

(١) المطول: شرح تلخيص مفتاح العلوم لسعدالدين عمر التفتازانى، ص٥٨٩، ٦٠٠، تحقيق د/عبدالحميد هنداوى، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

(٢) تجريد البنانى على مختصر السعد ، ج٢، ص٢٢١، نقلا عن المجاز فى اللغة والقرآن الكريم، د/ عبدالعظيم المطعنى، ج١، ص٣٦٨ .

(٣) المجاز فى اللغة والقرآن الكريم د/ عبدالعظيم المطعنى، ج١، ص٣٦٨، ط١، مكتبة وهبة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

السامعين وإزالة السآمة عنهم بواسطة الإتيان بشيء مستملح مستظرف، كانت تمليحية"(١).

وقد أشار الزمخشرى على أن قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران ٢١] من العكس فى الكلام الذى يدل على الاستهزاء والتهكم يقول: "وأما ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾فمن العكس فى الكلام الذى يقصد به الاستهزائ الزائد فى غيظ المستهزأ به، وتألمه واغتمامه، كما يقول الرجل لعدوه : بشر بقتل ذريتك"(٢).

وذكر أن العرب كثيرا ما يذهبون إلى التعكيس فى كلامهم، يقول: "والتعكيس فى كلامهم للاستهزاء والتهكم مذهب واسع، وقد جاء فى كتاب الله سبحانه وتعالى فى مواقع منها: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾"(٣).

ولعل طريقة الزمخشرى وما ذهب إليه من أن قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ من العكس فى الكلام خير من تكلف الاستعارة، كما ذكر الدكتور محمد أبوموسى، قال: "ولست أجد لهذا النوع مذاق الاستعارة، ولست أستسيغ أيضا تكلف إجرائها فى هذه الأساليب، وأن طريقة الزمخشرى هذه التى تكتفى ببيان أصل هذه الطريقة، وأنها من العكس فى الكلام ... لا شك أن هذه الطريقة خير من تكلف الاستعارة"(٤).

---

(١) علم الجمال اللغوى د/ محمود سليمان ياقوت، ج٢، ص٦٢٤، طبعة دار المعرفة، ١٩٩٥م.
(٢) الكشاف ج١ ص١٠٤ ، ط٣ .
(٣) الكشاف للزمخشرى ج٢، ص٥٧١، ط٣، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، دار الريان للتراث.
(٤) البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى، د/ محمد أبوموسى ص٥٠٩ .

فالأفضل أن يطلق عليه العكس أو التنويع يقول الشهاب: "وهذا نوع من خلاف مقتضى الظاهر، يقال له: التنويع وهو ادعاء أن للمسمى نوعين: متعارفا وغير متعارف"(١) وبين أن التنويع هو: "أن ينزل ما يقع فى موقع شىء بدلا عنه منزلته بلا تشبيه ولا استعارة، وحيث أطلق التنويع فالمراد به هذا"(٢) أى العكس.

"وهذا التنويع هو العكس الذى ذكره الزمخشرى لأن أمثلة العكس تصلح كلها للتنويع، بل هى أهم نوع فيه، والذى أطلق التنويع انصرف إليه"(٣) فالتبشير حقيقة فى الخبر السار، فإذا استعمل فى الضد جاء على سبيل التهكم، كما سيتضح فيما نتناول من الآيات:

فمن آيات التبشير بأسلوب التهكم للكافرين:

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران ٢١].

السياق فى الآية سياق تحذير وتهديد للكافرين، والآية استئناف بيانى جاءت وعيدا لهم لأن (بشرهم) هنا بمعنى: أنذرهم تهكما، لاستعماله فى ضد حقيقته.

فالمراد إخبارهم بحصول العذاب، وهذا موجب لحزنهم ولا يظهر سرور. وقد استحقوا ذلك وجاء الأسلوب للتهكم لأنهم جمعوا من الجرائم ثلاثة أنواع:

---

(١) حاشية الشهاب الخفاجى على البيضاوى، ج٢، ص٦٠، طبعة بيروت.
(٢) السابق نفسه.
(٣) البلاغة القرآنية ، د/ أبوموسى، ص٥١١ .

كفروا بآيات الله، وقتلوا الأنبياء، وقتلوا الدعاة الذين يأمرون بالقسط فاستحقوا العذاب وحبطت أعمالهم من بر وإحسان فى الدنيا والآخرة، وخوطبوا بالأسلوب التهكمى، حيث نزل الإنذار منزلة التبشير بما هو سار ٠

قال أبوحيان: "البشارة هى أول خبر سار فإذا استعملت مع ما ليس بسار، فقيل: "ذلك هو سبيل التهكم والاستهزاء ... أى القائم لهم مقام الخبر السار هو العذاب الأليم"(١)٠

وفى روح المعانى: "التعبير بالبشارة للتهكم، وصرف الخطاب عنهم إلى رسول الله ﷺ قيل: "لأن البشارة إنما تليق بمن يقف على الأسرار الإلهية، وقد يقال: لا يبعد كون الخطاب لكل من له حظ فيه"(٢)٠

والأفعال المضارعة فى الآية: (يكفرون، ويقتلون) ليس المراد منها إفادة التجدد لأنهم قتلوا الأنبياء والدعاة فى الزمن الماضى، ولكن المراد بالأفعال المضارعة استحضار الحالة، وتقبيح أوصافهم، والتنفير منها والتوعد عليها بالعقاب مما يحمل على التحلى بالإيمان. وإظهار اسم الجلالة فى قوله: ﴿بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ لتربية المهابة فى النفس وإدخال الروعة٠

وجاء التقييد بـ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ "إشارة إلى أن قتلهم للأنبياء كان ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ فى اعتقادهم أيضا، فهو أبلغ فى التشنيع

---

(١) البحر المحيط لأبىحيان الأندلسى، ج٣، ص٧٧، طبعة دار الفكر، بيروت ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م٠

(٢) روح المعانى للألوسى، ج١٠، ص٤٨، دار إحياء التراث العربى٠

عليهم"[١]، فهو حشو حسن فائدته تأكيد قبح القتل فلم يقتل نبى بحق فبلاغة التعبير فى تشنيع هذا الأمر وعظمه فى قلب من يعزم عليه.

وجاء قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ بالتنكير "لان الجملة هنا أخرجت مخرج الشرط وهو عام لا يتخصص، فناسب ان يكون المنفى بصيغة التنكير حتى يكون عاما"[٢]، وناسب التعريف قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [البقرة آية ٦٢] ، لأن فى البقرة جاء ذلك فى صورة الخبر عن ناس معهودين فناسب ان يأتى بصيغة التعريف لأن الحق الذى كان يستباح به قتل الأنفس عندهم كان معروفا"[٣].

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أى من غير الأنبياء، وهى لتأكيد قبح قتلهم للأنبياء ولغير الأنبياء، ولو حذفت لصدق اللفظ على الأنبياء فقط.

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وهم اليهود والمراد: الذين عاصروا النبى لا آباؤهم، ولذلك جاءت الصلة بالمستقبل فيكون إطلاق قتل الأنبياء مجازا لهم لأنهم رضوا قتل الأنبياء ورامـوه ولما كان المخاطبون راضين بصنيع أسلافهم صحت هذه الإضافة إليهم فى (فبشرهم) [٤].

وفسر القرطبى معنى (أليم) قال: (أليم) فى كلام العرب معناه: مؤلم، أى: موجع، وآلم : إذا أوجع، والإيلام: الإيجاع[٥]، ودخلت

---

(١) تفسير محمد جمال الدين القاسمى، المسمى محاسن التأويل، ج٤ ص٨١٧، ط١ ـ ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م.
(٢) البحر المحيط، ج٣، ص٧٦ .
(٣) السابق نفسه .
(٤) ينظر البحر المحيط، ج٣، ص٧٧، ومحاسن التأويل للقاسمى، ج٤، ص٨١٧ .
(٥) ينظر الجامع لأحكام القرآن لأبى عبدالله القرطبى، ج١، ص١٩٨

(الفاء) فى خبر (إن) لأن اسم الموصول تضمن معنى اسم الشـــرط، فالفاء فى (فبشرهم) فاء جواب الشرط، وتشير إلى العموم أى أن كل من يتصف الصلة فجزاؤه العذاب الأليم وليس المقصود قوما بعينهم ٠

يقول الزمخشرى: "فإن قلت: لم دخلت الفاء فى خبر إن؟ قلت: لتضمن اسمها معنى الجزاء، كأنه قيل: الـــذين يكفـــرون فبشـــرهم بمعنى: من يكفر فبشرهم، و(إن) لا تغير معنى الابتداء فكأن دخولها كلا دخول، ولو كان مكانها (ليت) أو (لعل) لامتنع إدخال الفاء لتغيـــر معنى الابتداء"(١) "ومع ذلك فى المسألة خلاف : الصحيح جواز دخول الفاء فى خبر (إن) إذا كان اسمها مضمنا معنى الشرط"(٢) ٠

قال تعالى: ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة الآية ٣] ٠

قوله تعـــالى: ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ ﴾ جملة تامة معطوفة علـــى قولـــه تعـــالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة الآية ١] ٠

قال الزمخشرى: "فإن قلتك لم علقت البراءة بالذين عوهدوا من المشركين وعلق الىذان بالنـــاس"؟ قلـــت: لان البـــراءة مختصـــة بالمعاهدة والناكثين منهم، وأما الآذان فعام لجميع الناس"(٣) ٠

فجملة (براءة) مخصوصة بالمشركين، أما جملـــة (وآذان...) فهى عامة فى حق جميع الناسن فهذا الحكم يلزم أن يعرفه المـــؤمن

---

(١) الكشاف للزمخشرى، ج١، ص٣٤٧، ٣٤٨ ٠
(٢) البحر المحيط، ج٣، ص٧٧ ٠
(٣) الكشاف، ج٢، ص٢٤٤ ٠

والمشرك . "فيجب على المؤمنين أن يعرفوا الوقت الذى يكون فيه القتال من الوقت الذى يحرم فيه، فأمر الله تعالى بهذا الإعلام يوم الحج الأكبر"(١).

قال الزمخشرى: "وصف بالحج الأكبر لأن العمرة تسمى الحج الأصغر"(٢) والمراد بـ﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ يوم العيد لأن فيه تمام الحج، ولأن الإعلام كان فيه، وبدليل "أن رسول الله ﷺ وقف يوم النحر بين الجمرات فى الحجة التى حج فقال: اى يوم هذا؟ قالوا: يوم النحر، قال: هذا يوم الحج الأكبر وروى ذلك عن على كرم الله تعالى وجهه"(٣) وهذا الرأى هو الأقوى رواية ودراية ويحسم خلاف العلماء فى تعيين هذا اليوم.

يقول الشوكانى: "ولا يخفاك أن الأحاديث الواردة فى كون يوم النحر هو يوم الحج الأكبر فى ثابتة فى الصحيحين وغيرهم من طرق، فلا تقوى لمعارضتها هذه الروايات المصرحة بأنه يوم عرفة"(٤).

وجملة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ إعلام لهم بأن الله برئ من المشركين وعهودهم، ورسوله برئى منهم أيضا وفيه زجر ووعيد.

والتصريح بقوله تعالى: "برئ" للإطناب ، فقد ذكر فعل البراءة مرة ثانية دون اختصار ، لم يقل: وآذان إلى الناس بها أو بذلك لفائدة الإطناب فى إبلاغهم ودفع حججهم، وفى الآية حذف (الباء)

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازى، ج١٥، ص٢٢١، ط٣، بيروت.
(٢) الكشاف، ج٢، ص٢٤٥ .
(٣) روح المعانى للآلوسى ، ج١٠، ص٤٦، ط٤، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
(٤) فتح القدير للشوكانى ، ج٢، ص٤٧٢، وانظر صحيح البخارى.

لدلالة الكلام عليه والتقدير: (بأن) الله برئى من المشركين، ورفع (ورسوله) لبلاغة الإيجاز فتقدير الكلام: ورسوله أيضا برئ من المشركين، لأن الخبر عن الله يدل على الخبر عن الرسول.

﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أى فإن تبتم عن الكفر، فالتوب ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما أنتم عليه من الضلال والكفر، وفيه ترغيب من الله تعالى فى التوبة وترك الشرك ، وهنا التفات من الغيبة إلى الخطاب وفائدة الالتفات هنا زيادة التهديد والتشديد.

﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ المراد من الفعل (توليتم) الاستمرار أى (دمتم)، أى: "إن دمتم على الشرك فاعلموا أنكم غير مفلتين من قدرة الله، أى اعلموا أنكم قد وقعتم فى مكنة الله"[1] فهو سبحانه يجازيهم بأعمالهم، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ تهكم وتهديد ووعيد عظيم لهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان آية ٧] عطفت هذه الآية على الآية السابقة وهى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان آية ٦]، يقول أبوحيان: تضمنت هذه الآية ذم المشترى من وجوه التولية عن الحكمة، ثم الاستكبار عن الحق، ثم عدم الالتفات إلى سماع الآيات ، ثم الإيغال فى الإعراض عنها مشبها حال من لم يسمعها بمن فى أذنيه وقر لكونه لا يلقى لها بالا ولا يلتفت إليها، ثم التهكم به بالبشارة بأشد العذاب[2] ، والإضافة فى (آياتنا) لتفخيم شأن الآيات.

---

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، ج١٠، ص١١١ .
(٢) انظر البحر المحيط لأبىحيان، ج٨ ص٤٠٤ .

و(ولى) فعل "وأصله الإعراض والإدبار عن الشىء بالجسم ثم استعمل فى الإعراض عن الأمور والأديان والمعتقدات اتساعا ومجازا"[١] ففى (ولى) استعارة تصريحية تبعية شبه الأمر المعنوى وهو الإعراض عن الدين بأمر حسى وهو الإعراض عن الشىء المحسوس ، فاستعار أمر حسى لأمر معنوى، و(مستكبرا) حال فهو يعرض عن آيات القرآن إذا قرئت عليه استكبارا لا يلتفت إلى الآيات ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾.

يقول الزمخشرى: "لا يعبأ بها ولا يرفع بها رأسا تشبه حاله فى ذلك حال من لم يسمعها وهو سامع، ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ أى ثقلا ولا قر فيهم. فإن قلت: ما محل الجملتين المصدرتين بكان؟ قلتك الأولى حال من (مستكبرا) والثانية حال من (لم يسمعها)"[٢] فالوقر أى: الثقل مجاز عن الصمم.

﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾: (كأن) مخففة من (كأن) وحذف ضمير الشأن تحقيرا له، والأصل كأنه لم يسمعها، وهنا تشبيه مرسل لذكر الأداة، وحذف وجه الشبه ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ تكرر التشبيه لتقويته ، ويوضح الإمام عبدالقاهر أنه: "لم يأت معطوفا نحو: وكأن فى أذنيه وقرا، لأن المقصود من التشبيه بمن فى أذنيه وقر ، وهو بعينه المقصود من التشبيه بمن لم يسمع، إلا أن الثانى أبلغ وآكد فى الذى أريد ، وذلك أن المعنى فى التشبيهين جميعا أن ينفى أن يكون لتلاوة ما تلى عليه من الآيات فائدة معهن ولا يكون لها تأثير فيهن وأن يجعل حاله إذا تليت عليه كحاله إذا لم تتل.

---

(١) المجاز فى اللغة والقرآن الكريم، ج١، ص٤٧١ .
(٢) الكشاف ج٣ ، ص٤٩٢ .

ولا شبهة فى أن التشبيه بمن فى أذنيه وقرا أبلغ وآكد فى جعله كذلك، من حيث كان من لا يصح منه السمع، وإن أراد ذلك، أبعد من أن يكون لتلاوة ما يتلى عليه فائدة من الذى يصح منه السمع إلا أنه لا يسمع، إما اتفاقا وإما قصدا على أن لا يسمعن فاعرفه وأحسن تدبره"(١).

ففى تكرير التشبيه بلاغة وزيادة تأكيد لان المقصود من التشبيه فى الأول هو بعينه المقصود من التشبيه فى الثانى، إلا أنه اختلف فى أن عدم السمع كان أولا مع تكمن آلة السمع، ولذلك شبه بمن فى أذنيه وقر، فهو لا يسمع وهو بعيد عن فائدة ما يتلى عليه، فكان التشبيه الثانى أخص من التشبيه الأول وأبلغ وآكد، فلما جعل عدم الفهم بمنزلة الصمم، ترتب على هذا التهكم به ببشارته بعذاب أليم لتوليته عن كلام الله، ففى (ولى) تمثيل لإعراضه عن آيات الله مستكبرا فاستحق الوعيد.

وفى الآية فصل لكمال الاتصال، فصلت جملة ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ﴾ عن جملة ﴿كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا﴾ لأنها بدل اشتمال، فقد دلت على المعنى الأول ولكنها أوفى وأدل على المعنى المقصود من الأولى، لان فيها تقرير عدم الانتفاع بآيات الله وإعراضه عنها متكبرا، وشبه بمن فى أذنيه وقر لعدم فهم ما يسمع وعدم علمه بما تضمنه المسموع، ولذلك فصلت لأنها أوفى بالغرض المطلوب وآكد.

واستعمل التبشير فى موضع الإنذار للتهكم والسخرية بالكافرين أيضا فى قوله تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ٧ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الجاثية آيتان ٧، ٨].

---

(١) دلائل الإعجاز للإمام عبدالقاهر الجرجانى، ص٢٢٩، تعليق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجى، القاهرة.

عبر سبحانه بقوله: ﴿وَيْلٌ﴾ للتهديد والوعيد ﴿لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾، والأفاك: الكذاب، والأثيم : كثير الإثم ن المبالغ فى اقتراف الآثام[١] والآية للعموم لأن "المراد بـ﴿لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ جميع المشركين الذين كذبوا دعوة الرسول ﷺ ، وعاندوا فى معجزة القرآن"[٢] و(أفاك) و(أثيم) صيغ مبالغة فى الكذب وارتكاب الآثام.

ومعنى: ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ﴾ أى يقيم على كفره وضلاله، ومعنى الإصرار على الشىء ملازمته وعدم الانفكاك عنه، من الصر وهو الشد، ومنه صرة الدراهم[٣] و(ثم) للتراخى الرتبى فهو يصر على استكباره عند سماعه الآيات دون تأخير.

ويقول الرازى: إن معنى (ثم) الاستبعاد بمعنى أن سماع آيات الله على قوتها وظهورها من المستبعد أن يقابل بالإنكار والإعراض[٤] ، وجاء فى التسهيل : وإنما عطفه بـ(ثم) لاستعظام الإصرار على الكفر بعد سماعه آيات الله، واستبعاد ذلك فى العقل والطبع[٥] وجملة (تتلى عليه) تدل على الاستمرار وهو يناسب الاستبعاد، وحذف متعلق (يصر) وهو: على كفره لدلالة المقام عليه، وفى الآية تشبيه حالهم فى عدم انتفاعهم بالآيات وإصرارهم على كفرم بحالهم فى عم سماع الآيات (مستكبرا) عن الإيمان بآيات القرآن وعبر باسم الفاعل ليدل على أن الاستكبار صفة ثابتة لهم، كأنه لم يسمع الآيات ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أطلق على الإنذار اسم البشارة

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازى، ج٢٧، ص٢٦١ .
(٢) تفسير التحرير والتنوير، ج٢٥، ص٣٣١ .
(٣) ينظر حاشية الشهاب على البيضاوى، ج٨ ص١٧، وروح المعانى للألوسى، ج٢٥، ص١٤٣ .
(٤) التفسير الكبير للفخر الرازى، ج٢٧، ص٢٦١ .
(٥) انظر التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ج٤، ص٣٨ .

وهو أسلوب تهكمى، والتنكير فى (عذاب أليم) حيث جاء فى جميع أساليب تبشير التهكم فى القرآن ، جاء التنكير لتنويع العذاب وللتهويل وللتفظيع ، وللتهديد والوعيد العظيم٠

وقال السيد الشريف فى شرح المفتاح : يجوز أن يجعل العذاب الأليم استعارة بالكناية عن النعيم المقيم على طريق التهكم، ويجعل نسبة التبشير إليه قرينة لها[١] فتكون استعارة مكنية تهكمية. لكن الشائع المشهور أنها استعارة تصريحية تبعية تهكمية فى الفعل، والقرينة الجار والمجرور، لأن التبشير لا يكون إلا بالخير السار[٢]٠

ثانيا: تبشير التهكم للمنافقين:

ورد التبشير بالتهكم للمنافقين فى سورة النساء فقط فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء ١٣٧ ــ ١٣٩]٠

هذه الآيات فى المنافقين جاء فى البحر: "الظاهر أنها فى المنافقين إذ هم المتلاعبون بالدين"[٣] أخبر سبحانه وتعالى "عن هذه الطائفة التى آمنت ثم كفرت ثم آمنت ثم كفرت ثم ازدادت كفرا بعد ذلك كله أنه لم يكن الله سبحانه ليغفر لهم ذنوبهم ولا ليهديهم سبيلا يتوصلون به إلى الحق ... لأنه يبعد منهم كل البعد أن يخلصوا لله ويؤمنوا إيمانا صحيحا، فإن هذا الاضطراب منهم ... يدل أبلغ دلالة

---

(١) شرح السيد على المفتاح ج٢، ص٨١٨ تحقيق، د/فريد النكلاوى٠
(٢) درر العبارات وغرر الإشارات فى تحقيق معانى الاستعارات ، تأليف الشيخ أحمد مكى الحموى، ص٥٢ طبعة ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م٠
(٣) البحر المحيط ، ج٤ ، ص٩٩ ٠

على أنهم متلاعبون بالدين، ليست لهم نية صحيحة ولا قصد خالص"[١].

ويقول الزمخشرى: "والمعنى أن الذى تكرر منهم الارتداد وعهد منهم ازدياد الكفر والإصرار عليه يستبعد منهم أن يحدثوا ما يستحقون به المغفرة، ويستوجبون اللطف من إيمان صحيح ثابت يرضاه الله لأن قلوب أولئك الذين هذا ديدنهم قلوب قد ضربت بالكفر ومرنت على الردة، وكان الإيمان أهون شىء عندهم"[٢].

وفسر قوله تعالى: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ بأن "ليس المعنى أنهم لو أخلصوا الإيمان بعد تكرار الردة ونصحت توبتهم لم يقبل منهم ولم يغفر لهم ... ولكنه استبعاد له واستغراب كأنه أمر لا يكاد يكون ، وهكذا ترى الفاسق الذى يتوب ثم يرجع ثم يتوب ثم يرجع لا يكاد يرجى منه الثبات، والغالب انه يموت على شر حال"[٣] ولما كان تظاهرهم بالإيمان، ثم رجوعهم إلى الكفر نوعا من التهكم بالإسلام والمسلمين جىء بوعيد يناسب تهكمهم، فقال تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ عبر سبحانه بلفظ (بشر) تهكما بهم.

"إطلاق البشارة على ما هو شر خالص لهم تهكم به، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾، وصف للمنافقين أو منصوب على الذم: أى يجعلون الكفار أولياء لهم يوالونهم على كفرهم وضلالهم، وقوله: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فى محل نصب على الحال أى يوالون الكافرين متجاورين ولاية المؤمنين"[٤].

---

(١) فتح القدير للشوكانى، ج١، ص٧٨٥ .
(٢) الكشاف للزمخشرى، ج١، ص٥٧٧ .
(٣) السابق نفسه .
(٤) فتح القدير للشوكانى، ج١، ص٧٨٦ .

وقوله تعالى: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ أى: أيطلبون بموالاتهم القوة والغلبة، وهذا إنكار لرأيهم وإبطال له، وبيان لخيبة رجائهم، ولذا علله بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أى له الغلبة والقوة ، فلا نصرة لهم من الكفار، والنصرة والظفر كله من الله تعالى"[١].

قال ابن كثير: "والمقصود من هذا التهييج على طلب العزة من جناب الله والالتجاء على عبوديته، والانتظام فى جملة عباده المؤمنين، الذين لهم النصرة فى هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد"[٢] ومن مواضع الفصل فى الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ استئناف بيانى وقع من قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء الآية ١٣٦] موقع جواب سؤال مقدر، فالجملة فى منزلة الجواب عن سؤال فهم من الجملة الأولى، أى: إذا كان من يكفر بالله فقد ضل ضلالا بعيدا، فما جزاء الكفر المتكرر بعد الإيمان؟

ولان الصلة قوية بين السؤال والجواب شبه بكمال الاتصال فالاستئناف البيانى من مواضع الفصل المعروف بشبه كمال الاتصال الذى يؤدى إلى تمكين المعانى فى النفس ، وهو يعتمد على التقدير ، والذوق ويبنى على الإيجاز.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾ "ازداد كفرا بأن تم على نفاقه حتى مات ... وازدياد كفرهم هو أنهم بلغوا فى ذلك حد الاستهزاء والسخرية بالإسلام"[٣] والإيمان والكفر لا يزدادان ولا

---

(١) تفسير القاسمى (محاسن التأويل) ج٥، ص١٦١١ .
(٢) تفسير ابن كثير، ج٢، ص٣٨٦، طبعة الشعب دون تاريخ .
(٣) البحر المحيط، ج٤، ص٩٩ .

ينقصان حقيقة، فهذا على سبيل المجاز لأن الزيادة والنقصان للمتعلقات. والمراد بالازدياد الاستمرار وعدم الإقلاع"[١] فهم استمروا على ضلالهم ولم يقلعوا عنه، ولهذا قال تعالى: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ وتعبير القرآن هو أبلغ وأروع من لو قيل: لا يغفر الله لهم ولا يهديهم لأن مجئ (لام الجحود) فى الآية تدل على أنه حكم عليهم بعدم الغفران والهداية.

"وأنهم تقرر عليهم ذلك فى الدنيا وهم أحياء، وهذه فائدة المجئ بلام الجحود، ففرق بين : لم يكن زيد يقوم، وبين: لم يكن زيد ليقوم"[٢].

فالأول يدل على نفى القيام فقط، والثانى: (ليقوم) يدل على نفى إرادة القيام ونفى إيتائه للقيام. والآية وعيد وإنذار لهم، وقد حرمهم الله الهداية والغفران، ولذلك فالنفى أبلغ فى الآية "لأن أصل وضع هذه الصيغة ــ ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ ــ للدلالة على أن اسم كان لم يجعل ليصدر منه خبرها ــ ﴿لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ ... ولقد أبدع النحاة فى تسمية اللام التى بعد كان المنفية (لام الجحود) "[٣] فينتفى ما بعد هذه اللام ويمنع ويجحد.

قال الزمخشرى: "نفى للغفران والهداية وهى اللطف على سبيل المبالغة التى توطئها اللام، والمراد بنفيهما : نفى ما يقتضيهما وهو الإيمان الخالص الثابت"[٤] فهم لم يؤمنوا ليغفر الله لهم ويهديهم.

---

(١) تفسير التحرير، ج٣ ، ص٣٠٥ .
(٢) البحر المحيط ج٤، ص١٠٠ .
(٣) تفسير التحرير، ج٥، ص٢٣٢ .
(٤) الكشاف للزمخشرى ، ج١، ص٥٧٦، ٥٧٧ .

وتكرر فى الآية التعبير بـــ(ثم) للدلالـــة علـــى الاســـتبعاد والاستغراب، أى يستبعد أن يصدر منهم ما يستوجب المغفرة لهم من إيمان صادق لأن قلوبهم مرنت على الضلال والنفاق، يتضح ذلك من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ دلالة على تلاعبهم بالدين، واستبعاد صحة إيمانهم واستغراب، وفى الآية طباق بين (آمنوا وكفروا) ٠

هذا وإن الطباق من الألفاظ التى خالفـــت مضـــمونها، ولـــذلك يسمى التضاد، وهو الجمع بين معنيين متضادين، ولا مناســـبة بـــين معنى الطباق لغة واصطلاحا، فإنه فى اللغة: الموافقة، وفـــى الآيـــة حذف، تقديره: (ماتوا على الكفر) وفائدة هذا الحذف استحقاقهم نفى الغفران والهداية عنهم ، بدليل أن من آمن وكفر مرارا ثم تاب وآمن ووافى تائبا يغفر الله له بإذنه سبحانه٠

جاء فى البحر: "﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ الجمهور علـــى تقـــدير محذوف، أى: ثم ازدادوا كفرا وماتوا على الكفر، لأنه معلوم من هذه الشريعة أنه لو آمن وكفر مرارا، ثم تاب عن الكفر وآمـــن ووافـــى تائبان أنه مغفور له ما جناه فى كفـــره الســـابق، وإن تـــردد فيـــه مرارا"(١)٠

ووصفهم سبحانه بقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ جاء اسم الموصول فى الآية تعليلا لتبشيرهم بعـــذاب اليم، أى يستحقون هذا العـــذاب لاتخـــاذهم الكـــافرين أوليـــاء ضـــد المؤمنين. وفى قوله تعـــالى: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ الاستفهام إنكارى، والغرض منه التوبيخ والـــذم لهـــم" وفـــى هـــذا

---

(١) البحر المحيط، ج٤، ص١٠٠ ٠

الاستفهام تنبيه على أنهم لا عزة لهم فكيف تبتغى منهم؟ وعلى خبث مقصدهم، وهو طلب العزة بالكفار والاستكثار بهم"[١].

وهذا "إيحاء إلى المنافقين شعروا بالضعف فطلبوا الاعتزاز، وفى ذلك نهاية التجهيل والذم"[٢] ولذلك صح أن يتفرع عنه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أى لأوليائه الذين كتب لهم العزة والغلبة على اليهود وغيرهم[٣].

ثالثا: تبشير التهكم للكانزين :

قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة ٣٤ ــ ٣٥].

افتتحت الآيات بالنداء ، واقترنت بحرفى التأكيد (إن) و(اللام) وذلك للاهتمام بالمضمون فأول الآيات استئناف ابتدائى لتنبيه المسلمين على بعض صفات الأحبار والرهبان، والغرض من هذا التنبيه التحقير لهم، وأن كثيرا منهم ليسوا على أكمل حال. والأحبار: جمع حبر بفتح الحاء وهو العالم من علماء اليهود ، والرهبان: اسم جمع لراهب وهو الذى زهد فى الدنيا وانقطع عن الخلق فى الصوامع لعبادة الله من أهل دين النصرانية[٤].

---

(١) السابق نفسه .
(٢) تفسير التحرير ج٥، ص٢٣٤ .
(٣) الكشاف، ج١، ص٥٧٧ .
(٤) ينظر تفسير التحرير والتنوير، ج١٠، ص١٧٠، والبحر المحيط ج٥ ص٤٠٥ .

ذكر الرازى: "أنه تعالى لما وصف الأحبار والرهبان بالتكبر والتجبر وادعاء الربوبية وصفهم فى هذه الآية بالطمع والحرص على اخذ أموال الناس تنبيها على أن المقصود من إظهار تلك الربوبية والتجبر اخذ أموال الناس بالباطل"(١) وهم يصدون الناس عن سبيل الله يمنعونهم عن الدخول فى دين الإسلام٠

"واندرجوا فى عموم الذين يكنزون الذهب والفضة فجمعوا بين الخصلتين المذمومتين: أكل المال بالباطل، وكنز المال إن ضنوا أن ينفقوها فى سبيل الله، وأكلهم المال بالباطل هو أخذهم من أموال إتباعهم ضرائب باسم الكنائس والبيع، وغير ذلك مما يوهمونهم به أن النفقة فيه من الشرع والتقرب إلى الله، وهم يحجبون تلك الأموال"(٢) وفى هذا تحذير من علماء الغش والسوء والضلال، وأنه لا يجب تعظيمهم أو إجلالهم، وهذا دليل على نقائصهم. وهذا ولم يسند الحكم إليهم جميعا فلم يقل: إن الأخبار والرهبان، ولكن اسند إلى كثير منهم ذلك لوجود الصالحين بينهم٠

فرق الزمخشرى بين صورة المجاز المرسل وصورة الاستعارة فى قوله تعالى: ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ قال: "معنى أكل الأموال على وجهين: إما أن يستعار الأكل للأخذ، ألا ترى إلى قولهم: أخذ الطعام وتناوله، وإما على أن الأموال يؤكل بها فهى سبب للأكل"(٣) فالتعبير بالأكل فى قوله تعالى: (ليأكلون) استعارة تبعية أو مجاز مرسل٠

على الوجه الأول: (استعارة تبعية) الاستعارة فى أكل الأموال إذ الأموال لا تؤكلن ولكن استعار الأكل للأخذ، عبر عن أخذ الأموال

---

(١) ينظر التفسير الكبير للفخر الرازى ج١٦ ص٤١ ٠
(٢) البحر المحيط، ج٥، ص٤١٠
(٣) الكشاف للزمخشرى، ج٢، ص٢٦٦ ٠

بالأكل للمشابهة بينهما، لأن الأكل هو الغرض الأصلى لجمع الأموال، شبه حالة أخذهم للأموال من غير تفريق بين الحلال والحرام وتهالكهم على جمعه بحالة جائع يتناول الطعام بلهفة وشراهة، دون تمييز بين طعام طيب وغيره، فالاستعارة للشبه بين (الأخذ والتناول) وفائدة هذه الاستعارة المبالغة فى أخذهم الأموال بالباطل وذكر (بالباطل) زيادة مبالغة ، ولذلك فإن (يأكلون) أبلغ من (يأخذون)٠

قيل: "لا طائل تحت هذه الاستعارة والاستشهاد بقولهم: أخذ الطعام وتناوله سمج"(١) وعلى الوجه الثانى: (مجاز مرسل) علاقته السببية أو المسببية عبر عن الأخذ بالأكل، فالأموال سبب للأكل، أو الأكل يتسبب عنه جمع المال ٠

والأفضل أن فى الآية (مجاز مرسل) ولا وجه للاستعارة، ويكون (الأكل مجازا مرسلا عن الأخذ) علاقته الإلزامية والملزومية، فإن "الأكل ملزوم للأخذ كما أن أخذ الطعام مجاز عن أكله لأنه لازم له، وأما فى الأموال، فهى مجاز عن الأطعمة التى تؤكل بها للتعلق بين الأموال والأطعمة المختصة بها"(٢) وفى هذا المجاز تقبيح لحالهم، وزيادة تنفير٠

وقرن الزمخشرى بين الكانزين وبين اليهود والنصارى عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ﴾ قال: "يجوز أن يكون إشارة إلى الكثير من الأخبار والرهبان للدلالة على اجتماع خصلتين مذمومتين فيهم: أخذ البراطيل (السحت) وكنز الأموال والضن بها عن الإنفاق فى سبيل الخير، ويجوز أن يراد المسلمون الكانزون غير المنفقين، ويقرن بينهم ــ أى الكانزين ــ وبين المرتشين من اليهود

---

(١) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى، ج٤، ص٣٢٣ ٠
(٢) السابق نفسه ٠

والنصارى تغليظا ودلالة على أن من يأخذ منهم السحت ومن لا يعطى منكم ــ من المسلمين ــ طيب ما له: سواء فى استحقاق البشارة بالعذاب الأليم"[١].

والكنز فى اللغة: الجمع والضم ، ومنه ناقة كناز أى منضمة الخلق، ولا يختص بالذهب والفضة بل يقال فى غيرهما وإن غلب عليهما، وغلب استعماله فى العرف على المدفون من الذهب والفضة"[٢] ، "ويحتمل الاستئناف والعموم، والظاهر ذم من يكنز ولا ينفق فى سبيل الله"[٣].

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أسلوب تهكم للتوبيخ والتقريع، أى اخبرهم بعذاب أليم فى نار جهنم بالكى بالذهب والفضة، وهو وعيد مرتبط بالكنز وعدم إنفاق المال فى سبيل الله بالصدقات والزكاة . وفى قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾ أتى بضمير الجمع، والمذكور شيئان وهما : الذهب والفضة ذلك للدلالة على الكثرة، لأن الكثير هو الذى يكنز، فالمراد دنانير ودراهم كثيرة.

"وقيل: الضمير عائد على الكنوز أو الأموال المفهومة من الكلام فيكون الحكم عاما"[٤] فهنا روعى المعنى دون اللفظ فكل واحد منهما يشمل جميع الأموال. ولذا عبر بالضمير بدلا من الاسم الظاهر، وعاد الضمير جمعا لهذا المعنى. وخص الذهب والفضة بالذكر دون سائر الأموال "لأنهما الأصل المعتبر فى الأموال وهما اللذان يقصدان بالكنز"[٥] وليس للتخصيص.

---

(١) الكشاف للزمخشرى، ج٢، ص٢٦٦ .
(٢) اللسان: كنز ، وتفسير البحر المحيط، ج٥، ص٤٠٩ .
(٣) البحر المحيط، ج٥، ص٤١١ .
(٤) محاسن التأويل للقاسمى، ج٨ ، ص٣١٤٠ .
(٥) التفسير الكبير للرازى ، ج١٦، ص٤٧ .

والمراد بقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ أى يوم تقود النار ذات حمى شديد عليها، وأصله : تحمى بالنار فجعل الإحماء للنار مبالغة، ثم حذفت النار وأسند الفعل إلى الجار والمجرور ــ عليهما ــ تنبيها على المقصود. فانتقل من صيغة التأنيث إلى صيغة التذكير"[١].

وفى جعل الإحماء للنار مبالغة "لأن النار فى نفسها ذات حمى فإذا وصفت بأنها تحمى دل على شدة توقدها[٢] و(يحمى) يجوز أن يكون من حميت أو أحميت ثلاثيا ورباعيا، يقال: حميت الحديدة وأحميتها أى: أوقدت عليها لتحمى. والفاعل المحذوف هو: النار، تقديره: يوم تحمى النار عليها، فلما حذف الفاعل (النار) ذهبت علامة التأنيث لذهابه، وقيل: (يحمى عليها) لانتقال الإسناد عن النار إلى (عليها) [٣].

وقيل: (عليها) والمذكور شيئان لأن المراد الكثير من الدنانير والدراهم لأنه الذى يكون كنزا فأتى بضمير الجمع للدلالة على الكثرة، ولو أتى بضمير التثنية احتمل خلافه"[٤].

قال تعالى: ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾ خصت هذه الأماكن بالكي لأن البخلاء "كانوا إذا أبصروا الفقير عبسوا، وإذا

---

(١) حاشية الشهاب المسماة عناية القاضى وكفاية الراضى على تفسير البيضاوى، ج٤ ص٣٢٣ طبعة بيروت.
(٢) المرجع السابق نفسه.
(٣) انظر الدر المصون فى علوم الكتاب المكنون لأحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبى، ج٦، ص٤٣، ط أولى ـ دمشق، والكشاف ج٢ ص٢٦٨ .
(٤) روح المعانى للألوسى، ج١٠، ص٨٨ .

ضمهم وإياه مجلس انزووا عنه، وتولوا بأركانهم، وولوا ظهورهم"[١].

قال القرطبى: "الكى فى الوجه أشهر وأشنع، وفى الظهر والجنب آلم وأوجع، فلذلك خصها بالذكر من بين سائر الأعضاء[٢] فهذه المواضع كناية عن جميع البدن.

وفى الآية: إطناب، فلم يقل: تكوى بها أجسادهم، ولكن عبر بالإطناب بذكر هذه المواضع لاستحضار حالة عذابهم تهويلا لعقابهم الشديد .

والحاصل بأن حصول الكى فى هذه الأعضاء الثلاثة يوجب زوال الجمال وزوال القوة، والإنسان إنما طلب المال لحصول الجمال ولحصول القوة[٣].

وقوله تعالى:﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ تبكيت لهم وتوبيخ وتقريع، يقال لهم: هذا ما كنزتموه لأنفسكم لم تؤثروا به رضا ربكم ولا قصدتم بالإنفاق منه نفع أنفسكم، والخلاص به من عقاب ربكم فصرتم كأنكم ادخرتموه ليجعل عقابا لكم على ما تشاهدونه، ثم يقول تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ ومعناه: لم تصرفوه لمنافع دينكم ودنياكم على ما أمركم الله به (فذوقوا) وبال ذلك به لا بغيره"[٤] .

---

(١) البحر المحيط، ج٥، ص٤١٣ .
(٢) تفسير القرطبى، ج٨ ص١٢٩ .
(٣) التفسير الكبير للرازى، ج١٦، ص٤٩ .
(٤) السابق نفسه .

والإشارة فى ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ إشارة إلى (الكى) على حذف مضاف ، أى: هذا الكى ثمرة ما كنزتموه، أو إشارة إلى الحمى أى المال الذى كنز ٠

يقول الشهاب: "إما إشارة إلى تقدير مضاف أو إلى محصل معنى الكلام"(١)، وفى ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ﴾ قول محذوف، أى: (يقال لهم عند الكى): ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ وهنا تغليظ وتوبيخ لهم وتنديم . واللام فى (لأنفسكم) لام التعليل، فما كنزوه من مال للمنفعة كان سببا لتعذيب أنفسهم مما يزيدهم حسرة وندم، وليست اللام للملك لعدم فائدة ذلك ٠

ومن بلاغة القرآن ونظمه البديع قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ حيث أفادت (على) الاستعلاء المجازى المفيد لتمكن الحمى من الأموال، بحيث تشمل حرارة المحمى ، ثم جاء الظرف فى قوله: ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ لإفادة تأكيد معنى التمكن لوجود معنى الظرفية، فصار ما كنزوه محمى عليها النار وداخل فى النار، ثم زاد المعنى تأكيدا ومبالغة بإضافة (نار) إلى (جهنم) (نار جهنم) نار الكى، فالنار مستعلية على الكنوز ومتمكنة منها ومحاطة بها، فأى وبال عليهم بما كنزوه، وأى تفظيع وألم لهم وشدة بالكى إنه عذاب أليم٠

وزاد التعبير جمالا وبلاغة بقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ الفاء للتقريع على الجملة السابقة، أى: جزاء ما كنتم تكنزون . و(ذوقوا) استعارة مكنية أو تبعية، فالمكنوز لا يذاق حقيقة

---

(١) حاشية الشهاب، ج٤، ص٣٢٤ ٠

يقول ابن قتيبة: "أصل الذواق: بالفم، ثم قد يستعار فيوضع موضع الابتلاء والاختبار"(١).

فالإذاقة استعارة مكنية لأنها فى الأصل تناول الشىء بالفم لإدراك الطعام، وهنا شبه الم الكانز وشدة كيه، أو شبه العذاب الذى يؤلمه بالطعام المر، ثم حذف المشبه به (الطعام) وأبقى شيئا من لوازمه إثبات لازم الطعم له، وهو : الإذاقة، وتكون الإذاقة تخييلا، فهنا استعارة مكنية تخييلية، أو تبعية، ومنها يظهر الشعور بالألم والمرارة، وهى لتعظيم الوعيد والتقريع والتبكيت.

وفى الآيات تفصيل بعد إجمال حيث أجمل العذاب أولا بقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ثم أخذ فى التفصيل، تفصيل بعد إجمال من الكى فى الجباه والجنوب والظهور للتقريع والتأنيب.

---

(١) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، ص١٦٤، ط٣ ، بيروت ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

المبحث الثالث
التبشير والظواهر الكونية
(تبشير الرياح)

قد تمر بالإنسان لحظات يظن نفسه فيها سيد الكون فيلفتنا القرآن على المظاهر الكونية، ويوقن الإنسان أن الكون هو ذا الوجود الذى كونه الله، ملائكة وإنسا وجنا وسماء وأرضا، والكون كله عابد لله ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ .. وهو سبحانه ﴿ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا﴾ فتأتى مبشرات بالرحمة أى بالمطر والخير والفضل.

فتبشير الرياح قدرة فائقة مستمرة، حركة دائبة للدلالة على أن الله هو الخالق القادر، ولإثبات البعث والحساب.

"والتصور الإسلامى فى هذا الجانب ينفى العفوية والمصادفة فى كل ما يجرى فى الكون ابتداء من نشأته وبروزه، إلى كل حركة فيه"(١).

"وهكذا على مدى الأجيال يصبح الكون والإنسان دليلا على وحدانية الله وتفرده بصنع هذا الكون وضبط قوانينه"(٢) وآيات تبشير الرياح آيات اعتبار واستدلال، وقد يراد من ذكر لفظ (الرياح) جميعا الدلالة على الخير والرحمة.

---

(١) فى ظلال القرآن للشيخ سيد قطب، ج٨، ص١٢٩٩، ط٢، دار الشروق، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٢) جماليات المضمون والشكل فى الإعجاز القرآنى د/ رمضان الصاوى الجوينى، ص١١٢، طبعة دار المعارف - الإسكندرية ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

قال ابن عطية: الرياح حيث وقعت فى القرآن فهى مقترنة بالرحمة، وأكثر ذكر الريح مفردة وإنما تكون مقترنة بالعذاب[١] وبين ابن القيم سر مجئ لفظ (الرياح) جمعا . قال: "سر ذلك أن رياح الرحمة مختلفة الصفات والمهاب والمنافع، وإذا هاجت منها ريح أنشأ لها ما يقابلها ... ويصدم حدتها، فينشأ من بينها ريح لطيفة تنفع الحيوان والنبات، فكانت فى الرحمة رياحا، وأما فى العذاب فإنها تأتى من وجه واحد ... لا يقوم لها شىء ، ولا يعارضها غيرها حتى تنتهى على حيث أمرت ... فتمثل ما أمرت به، وتصيب ما أرسلت إليه"[٢].

ولعل الأفضل: "أن التعبير بصيغة الجمع قد يراد به تعدد المهاب أو حصول الفترات فى الهبوب، وأن الإفراد قد يراد به أنها مدفوعة دفعة واحدة قوية لا فترة بين هباتها"[٣] وألفاظ الرياح فى القرآن ثمانية:

عن ابن عمر رضى الله عنهما: الرياح ثمان؛ أربع منها عذاب، وأربع منها رحمة: أما الرحمة فهى: الناشرات، والمبشرات، والمرسلات، والذاريات. وأما ألفاظ العذاب فهى: القاصف، والعاصف، والصرصر، والعقيم[٤].

وآيات الظواهر الكونية التى منها تبشير الرياح وردت فى القرآن الكريم كله فى أربع سور تكاد تكون متماثلة مع فروق دقيقة.

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية، ج٧، ص٨١، تحقيق المجمع العلمى بفاس ، مكتبة ابن تيمية، القاهرة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
(٢) بدائع الفوائد لابن القيم ج١، ص١١٨ طبعة بيروت، دار الكتاب العربى .
(٣) تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، ج٨، ص١٨٠ .
(٤) التفسير الكبير للفخر الرازى، ج١٤، ص١٤١ .

آيات بشرى الرياح :

١ - قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف الآية ٥٧].

٢ - قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾ [الفرقان الآية ٤٨].

٣ - قال تعالى: ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل الآية ٦٣].

٤ - قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الروم الآية ٤٦].

وهذه آيات تبشير الرياح ودراستها بلاغيا:

١ - قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف لآية ٥٧].

قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ ﴾ عطف على ما قبله، وفيه دلالة على وحدانية الله سبحانه وإثبات إلاهيته . والتعبير بقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى ﴾ أقوى دلالة من ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ ﴾ فتعبير القرآن يدل على أن ذلك معهود عند السامع ومعلوما ومتحقق الوقوع، وأن الله هو الفاعل حيث أسند الموصول إلى ضمير الجلالة فى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ ﴾ .

"فالخبر مسوق لتعيين صاحب هذه الصلة، فهو بمنزلة الجواب عن استفهام مقصود منه طلب التعيين ... ولذلك لم يكن فى هذا الإسناد قصر لأنه لم يقصد به رد اعتقاد"(١).

والمقصود من إرسال الرياح الدلالة على قدرة الخالق والتدبير العظيم فى تكوين الرياح، وهذا الأسلوب الخبرى فيه تقريع للمشركين ونذارة لهم بالقحط والجوع، وفى جانب المؤمنين فهو تبشير لهم بإرسال الخير إليهم.

وفى ﴿يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ استعارة ، حيث استعار العاقل المرسل للرياح وأطلق الإرسال على هبوب الرياح فشبهت بإنسان ينتقل من مكان إلى مكان، فحقيقة (أرسل) بعث شىء وتوجيه ، وأطلق هنا على حركة الرياح التى تشبه السير "وحسن هذه الاستعارة أن الريح لا تفارق كرة الهواء .. فتصريف الرياح من جهة إلى جهة أشبه بالإرسال منه بالإيجاد"(٢).

وقوله تعالى: ﴿بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾، (بشرا) بضم الباء وسكون الشين جمع بشير، أى الرياح تبشر بالمطر ويستبشر بها الناس(٣) و﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ كناية عن الأمام.

قال أبوحيان: "ومعنى ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ أى أمام نعمته، وهو المطر الذى هو من أجل النعم وأحسنها أثرا على الإنسان"(٤) وأصل معنى قولهم: بين يدى فلان : أنه يكون إمامه بقرب منه،

---

(١) تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، ج٨ ص١٨١ .
(٢) المرجع نفسه ص١٧٨ .
(٣) فتح القدير ج٢، ص٣٠٣، ٣٠٤ .
(٤) البحر المحيط لأبىحيان ، ج٥ ص٧٧ .

ولذلك قوبل بالخلف فى قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة ٢٥٤، الأنبياء ٢٨]، فقصد الكناية عن الأمام[١].

ويجوز أن يكون ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ مجازا عن التقدم والسبق، مجازا مرسلا، أى يرسل الرياح سابقة رحمته. "إذ الحقيقة هو ما بين يدى الإنسان من الأجرام"[٢] ففى الآية مجاز مرسل والعلاقة السببية ، لأن اليد سبب الإنعام، والإنعام : الرحمة التى هى الغيث.

ومعنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾، "المعنى: حتى إذا حملت الرياح سحابا ثقالا بالماء الذى صارت تحمله ﴿سُقْنَاهُ﴾ أى السحاب ﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ أى مجدب ليس فيه نبات"[٣] فالمراد بـ(أقلت): "حملت ورفعت، واشتقاق الإقلال من القلة، لأن الرافع المطبق يرى الذى يرفعه قليلا"[٤] والغاية من إرسال الرياح التبشير.

فالله سبحانه "يرسل الرياح مبشرات أو مبتشرات إلى سوق السحاب وقت إقلاله إلى بلد ميت، والسحاب اسم جنس بينه وبين مفرده تاء التأنيث، فيذكر .. ويؤنث"[٥] و﴿سُقْنَاهُ﴾ "الضمير للسحاب على اللفظ"[٦] وهو هنا استعارة لأن حقيقة سقناه من السوق

---

(١) تفسير التحرير للطاهر بن عاشور، ج٨ ص١٨٠ .
(٢) النهر الماد من البحر المحيط لأبىحيان الاندلسى، ج١، ص٨١٣ ط١ ، دار الجنان، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
(٣) فتح القدير للشوكانى، ج٢، ص٣٠٣ .
(٤) الكشاف للزمخشرى ، ج٢، ص١١١ .
(٥) النهر الماد من البحر لأبىحيان الأندلسى، ج١، ص٨١٣ .
(٦) الكشاف للزمخشرىن ج٢، ص١١١ .

أى التسيير، أو تشبيه تمثيلى حيث شبه حالة دفع الريح السحاب بحالة سوق السائق المركبة.

وفيه التفات عن الغيبة إلى المتكلم، حيث تحول الخطاب من ضمير الغيبة فى (رحمته) إلى ضمير المتكلم فى (سقناه) فجاء الالتفات بنون العظمة للدلالة على عظيم المنة والنعمة . ونسب السوق إلى الله تعالى لهذا المعنى. و"اللام" فى (لبلد) ليست لام العلة كما ذكر الزمخشرى قال: "لأجل بلد"[١] فجعل اللام لام العلة . وإنما "اللام" فى (لبلد) لام التبليغ كقولك: قلت لك.

ذكر ذلك أبوحيان بقوله: وفرق بين قولك: سقت لك مالا وسقت لأجلك مالا، فإن الأول معناه: أوصلته لك وبلغتكه ، والثانى: لا يلزم منه وصله إليك[٢].

فهذه بلاغة القرآن، وقد عدل عن الحرف (إلى) لأن (اللام) تدل على عناية الله سبحانه بذلك البلد، فكانت اللام أدل على المعنى من الحرف (إلى).

وفى قوله تعالى: ﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ البلد الميت ليس محددا وفيه مجاز عقلى حيث أسند الموت إلى البلد، وهذا إسناد مجازى، فالذى يموت هو النبات والثمر، فالميت النبات وليس البلد، فأطلق الميت مجازا على المكان الذى ليس فيه نبات. أو وصل البلد بالموت استعارة، لأن البلد الميت هو: المجدب الذى ليس فيه نبات، فشبهت بالجسد الذى لا روح فيه ، ووجه الشبه عدم الانتفاع به، فهى

---

(١) السابق نفسه.
(٢) النهر الماد من البحر المحيط لأبىحيان الأندلسى، ج١ ص٨١٣

استعارة حسنة . ويعود الضمير فى قولـــه: ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ علـــى: البلد أو السحاب أو السوق[١].

والأفضل عود الضمير على البلد لأنه أقرب مذكور كمـــا قـــال أبوحيان: "الضمير عائد على: بلد ميت، أى: فأنزلنا فيه الماء، وهـــو أقرب مذكور، فحسن عوده إليه"[٢].

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ أى بالماء ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ (مـــن) للتبعـــيض، و﴿كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ تدل على العموم والاستغراق، أى من جميع الأنواع، ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أى "مثل ذلك الإخراج وهو إخـــراج الثمـــرات نخرج الموتى من القبور"[٣] والإشارة بـــ(كذلك) إشارة إلى الإخـــراج فى (فأخرجنا) أى إحياء البلد الميت بإنزال الماء عليه وإنبات الثمار بهن كذلك يخرج الله الموتى من قبورهم ويحييهم.

ففى قوله تعالى:﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ تشبيه مرسل، ذكر الأداة، ولم يذكر وجه الشبه "أى مثل إخراج النبـــات نخـــرج المـــوتى مـــن قبورهم أحياء إلى الحشر، فإخراج الثمـــرات وإنشـــائها كخـــروجكم للبعث، إذ الإخراجان سواء، فهذا الإخراج المشاهد نظيـــره الإخـــراج الموعود به[٤].

والتشبيه فى مطلق الإخراج من العدم، ووجه الشبه هو إحياء بعد موت ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ "أى تتذكرون فتعلمون بعظيم قدرة الله

---

(١) انظر الكشاف: ج٢، ص١١١ .
(٢) النهر الماد ، ج١ ، ص٨١٤ .
(٣) فتح القدير للشوكانى، ج٢، ص٣٠٣ .
(٤) انظر النهر الماد على البحر المحيط ، ج١، ص٨١٤ .

وبديع صنعته، وأنه قادر على بعثكم كما قدر على إخراج الثمرات التى تشاهدونها"[١].

"فالمراد التذكير الشامل الذى يزيد المؤمن عبرة وإيمانا والذى من شأنه أن يعلق من الشرك"[٢] ويقلع عن إنكار البعث.

٢ - قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان الآية ٤٨].

فى الآية الكريمة "قصر" حيث قصر إرسال الرياح على الله تعالى استدلالا على انفراده سبحانه بالخلق والامتنان بإرسال الرياح وإنزال المطر ونفى أن يكون له شريك.

وجملة ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ داخلة فى القصر، لأن (أنزلنا) بمعنى: وهو الذى أنزلن وقد عطفت على جملة ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ﴾، وبين الجملتين وصل للتوسط بين الكمالين، فقد وصل بين الجملتين لاتفاقهما فى الخبرية وتناسبهما فى المعنى، ولأنه لا يوجد ما يوجب الفصل بين الجملتين: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾، و﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ لذلك صح العطف بينهما.

"و﴿بُشۡرَۢا﴾ تخفيف بشر: جمع: بشور وبشرى، و﴿بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ استعارة مليحة، أى: قدام المطر، ﴿طَهُورًا﴾ بليغا فى طهارته"[٣].

طهورا: مبالغة فى الطهارة، و"المعنى: أن الماء النازل من السماء هو بالغ نهاية الطهارة فى جنسه من المياه، إذ لم يختلط به

---

(١) فتح القدير للشوكانى ، ج٢ ، ص٣٠٣ .
(٢) تفسير التحرير للطاهر بن عاشور ، ج٨ ، ص١٨٤ .
(٣) الكشاف للزمخشرى : ج٣ ص٢٨٤ .

شيء يكدره، أو يقذره، ووصف الماء بالطهور يقتضى أنه مطهر لغيره، إذ العدول عن صيغة فاعل إلى صيغة فعول زيادة معنى فى الوصف فيكون ذكر هذا الوصف إدماجا لمنه فى أثناء المنن المقصودة"(١).

وذكر أبوالسعود أن وصف الماء بقوله: ﴿مَآءً طَهُورًا﴾: "إشعار بتمام النعمة فيه، وتتميم للنعمة فيما بعده، فإن الماء الطهور أهنأ وأنفع مما خالطه ما يزيل الطهوريته وتنبيه على أن ظواهرهم لما كانت مما ينبغى أن يطهروها، فبواطنهم أحق بذلك وأولى"(٢) .

ويقول الفخر الرازى: "المقصود من الماء إنما هو التطهر به، فوجب أن يكون المراد من كونه (طهورا) أنه هو المطهر به لأنه تعالى ذكره فى معرض الإنعام فوجب حمله على الوصف الأكمل، ولا شك أن المظهر أكمل من الطاهر"(٣).

وفى الآية التفات من الغيبة فى ﴿أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ إلى التكلم فى ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ والالتفات من الغيبة إلى التكلم هنا للتعظيم والامتنان، وسر الالتفات هنا أن ضمير التكلم أدخل فى الامتنان من الغائب.

وفى الآية السابقة فى سورة الأعراف قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ بصيغة المضارع وذلك لاستمرار حدوث الفعل.

وهنا فى الآية التى معنا فى سورة الفرقان قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ بصيغة الماضى، وذلك لتحقق وقوع الفعل.

---

(١) تفسير التحرير والتنوير، ج١٩، ص٤٦ .
(٢) تفسير إرشاد العقل السليم لأبىالسعود، ج٤، ص١٤٣ .
(٣) التفسير الكبير للفخر الرازى ج٢٤، ص٩٠ .

٣ - قال تعالى: ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل الآية ٦٣].

نبه سبحانه فى هذه الآية الكريمة على أمرين:

الأول: أنه تعالى يرشدنا إلى مقاصدنا فى أسفارنا فى الظلام فى البر والبحر.

الثانى: أنه تعالى هو الذى يسوق الرياح مبشرة بنزول المطر رحمة للبلاد والعباد، فالمراد بقوله تعالى: ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ ﴾ "يهديكم بالنجوم فى السماء، والعلامات فى الأرض: إذا جن الليل عليكم مسافرين فى البر والبحر"(١).

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ ﴾، أى أنه سبحانه "هو الذى يحرك الرياح فتثير السحاب ثم تسوقه إلى حيث يشاء"(٢) و"ظلمة البر" هى ظلمة الليل، وهى الحقيقة وتنطلق مجازا على الجهل وعلى انبهام الأمر، فيقال: أظلم على الأمر ... وهداية البر تكون بالعلامات ، وهداية البحر بالنجوم"(٣).

قال تعالى: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ﴾؟ أى أإله مع الله يقدر على ذلك؟ ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تنزه سبحانه وتمجد عن أن يشاركه أحد، فهو القادر الخالق لا شريك له. فالاستفهام فى قوله تعالى:

---

(١) الكشاف للزمخشرى، ج٣، ص٣٧٧ .
(٢) التفسير الكبير للفخر الرازى ، ج٢٤، ص٢٠٩ .
(٣) البحر المحيط لأبىحيان ن ج٨ ، ص٢٥٩ .

﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ للتقرير والنفى، "نفى لأن يكون معه إله آخر، وقوله ﴿تَعَٰلَىٰ ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تقرير وتحقيق له"(١).

والإظهار لفظ الجلالة (الله) فى موضع الإضمار للإيماء على علة الحكم "أى تعالى وتنزه بذاته المتفردة بالألوهية المستتبعة لجميع صفات الكمال ونعوت الجمال والجلال المقتضية لكون كل المخلوقات مقهورا تحت قدرته ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أى عن وجود ما يشركونه به تعالى"(٢).

ونلاحظ فى آيات السورة الكريمة التى معنا ــ سورة النمل ــ كثرة أساليب الاستفهام، وارتباط الاستفهام بالموضوع حيث ارتبط الاستفهام بالعقيدة والتوحيد واليوم الآخر، فهو محله الإيمان واليوم الآخر، وقد تكرر أسلوب الاستفهام فى آيات متتالية من سورة النمل: كقوله تعالى: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ آية ٦٠، ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ آية ٦١، ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ آية ٦٢، ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ آية ٦٣ .

ومناسب ختم كل استفهام بما تقدمه ، كما قال أبوحيان فى البحر المحيط "لما ذكر خلق العالم العلوى والسفلى وما امتن به من إنزال المطر وإنبات الحدائق ختمه بقوله: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ أى عن عبادته أو يعدلون به غيره مما هو مخلوق، ولما ذكر جعل الأرض مستقرا وتفجير الأنهار، وكان فيه التنبيه على الفكر والتعقل ختمه بقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولما ذكر إجابة دعاء المضطر وكشف السوء ختمه بقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ لأن

---

(١) تفسير إرشاد العقل السليم لأبى السعود، ج٤، ص٢١١ .
(٢) تفسير إرشاد العقل السليم لأبى السعود، ج٤، ص٢١١ .

الإنسان يتوالى عليه النسيان عندما يزول عنه اضطراره، ولما ذكر الهداية فى الظلمات وإرسال الرياح مبشرات، ومعبوداتهم لا تهدى ولا ترسل وهم يشركون بها الله ختمه بقوله: ﴿تَعَٰلَىٰ ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾"[1].

و(من) فى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓ﴾ (من) اسم استفهام إنكارى بمعنى النفى، فيفيد عموم نفى إرسال الرياح، أى أحد غير الله، فهو سبحانه القادر الحكيم المدبر لهذه الأمور.

٤ - قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَلِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٤٦ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧ ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [الروم الآيات ٤٦ ــ ٤٨].

هذه الآيات تدل على تفرده سبحانه بالتصرف وأنه وحده هو الذى خلق هذا الوجود، وفيها تثبيت للمؤمنين بوعدهم بالنصر على المشركين.

والآيات التى معنا سبقتها ست آيات ابتدأت بقوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ للدلالة على الوحدانية وعلى اتحاد الغرض، ولذلك عطفت لمناسبتها لما قبلها ولاتحاد غرضها. دلالة على تفرده سبحانه بالإلهية.فمن آيات قدرته سبحانه ﴿أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ﴾. والمبشرات: المؤذنة بالخير وهو المطر، وورد التبشير فى سورة الروم قال

---

(١) البحر المحيط، ج٨، ص٢٦٠ .

تعالى: (مبشرات) ذلك لزيادة المعنى، فزيادة المبنى لزيادة المعنى، شبهت الرياح برسل أتت بأخبار سارة، دلالة على قدرة الله.

و(مبشرات) فى معنى التعليل لإرسال الرياح ، فالعطف باعتبار المعنى فإن الحال قد يقصد بها التعليل نحو: أهن زيدا مسيئا اى لإساءته"[١].

قوله تعالى: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾، و(ليذيقكم) معطوفة على (مبشرات)، وفى الإذاقة: استعارة مكنية، حيث شبه ما ينزل عليهم من الغيث فيسعدون به، بإذاقة الطعام فهى دلالة أو إيماء إلى إحساسهم بالنعم. و(من) ابتدائية فى قوله: ﴿مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾، ورحمة الله: هى المطر، وقيل: الخصب التابع لنزول المطر المسبب عن الرياح، أو الروح الذى هو مع هبوبها[٢].

﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾ أى تسير السفن فى البحر بالرياح، وهبوبها (بأمره) أى بإرادته سبحانه. وجىء بهذا القيد: (بأمره) "لأن الريح قد تهب ولا تكون مواتية، فلابد من انضمام إرادته تعالى وأمره سبحانه للريح حتى يتأتى المطلوب، وقيل للإشارة إلى أن هبوبها مواتية أمر من أموره تعالى لا يقدر عليها غيره عزوجل"[٣] بالتقييد بها ــ (بأمره) ــ يعد إيجاز قصرن فهى تحمل معان كثيرة من تحقيق للمنة وتعليمهم، وإلهام من الله للبشر لصناعة الفلك وتسييرها، وتقدير الله لنظام الرياح والبحار.

﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أى تطلبوا الرزق بتجارة البحر، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: تشكروا نعمة الله .

---

(١) روح المعانى للألوسى، ج٢١، ص٥١ .
(٢) السابق نفسه، وانظر التحرير والتنوير، ج٢١، ص١١٨ .
(٣) روح المعانى للألوسى ، ج٢١، ص٥٢ .

والآية جاءت بأسلوب الإطناب، فلم يأت التعبير: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ ﴾، ﴿ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾، ولكن قال تعالى: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ بإطناب ليتمكن المعنى فى النفس بتعداد النعم الكثيرة وتذكير العباد بالمنة والفضل، واستحقاقه تعالى الشكر بفضله وإنعامه.

وإثبات اللام فى قوله تعالى: ﴿وَلِيُذِيقَكُم ﴾ "إيضاحا للمعطوف عليه .. وأشار إلى عظمة هذه النعمة وإلى أنها صارت لكثرة الإلف مغفولا عنها، بإعادة اللام فقال: ﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ ﴾ ولما كان كل من مجرد السير فى البحر والتوصل به من بلد إلى بلد نعمة فى نفسه عطف على (لتجرى) قوله منبها بإعادة اللام إيضاحا طلبا ماضيا بذلك السير"(١) والتبعيض فى ﴿ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ يدل على عظيم فضلهن وعظم نعمه، وعظم ما عنده سبحانه.

٥ - قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الروم الآية ٤٨] .

هذه الآية الكريمة تبين الحكمة من هبوب الرياح، وهى أنها تثير السحب فيخرج منه الماء، وهى متعلقة بقوله تعالى فى الآية السابقة ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ ﴾ [الروم ٤٦].

والآية التى بينهما اعتراض لتأنيس الرسول ﷺ ، وجاءت وعيدا للكافرين ووعدا بالنصر للمؤمنين وفى إرسال الرياح قدرة وحكمة كما ذكر أبوحيان فى النهر الماد: "أما القدرة: فإن الهواء

---

(١) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين البقاعى، ج١٥، ص١١٤، ١١٥، الطبعة الأولى ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.

اللطيف الذى يسبقه البرق يصير بحيث يقلع الشجر ويهدم البناء، وهو ليس بذاته يفعل ذلك، بل بفاعل مختار، وأما الحكمة: ففيها يفضى إليه نفس الهبوب من إثارة السحب وإخراج الماء منه، وإنبات الزرع ... وهذه حكمة بالغة مقرونة بالمشيئة"(١).

ومعنى (تثير) : من ثور: ثار الغبار والسحاب ونحوهما يثور ثورا وثورانا: انتشر ساطعا . والإثارة : تحريك القار تحريكا يضطرب به موضعه. وإثارة السحاب: إنشاؤه، فالإثارة: التحريك والتسيير(٢) (فيبسطه): البسط: النشر. بسط الشىء: نشره وتوسعه. فتارة يتصور منه الأمران، وتارة يتصور منه أحدهما(٣).

و(كسفا): جمع كسفن بكسر فسكون، ومنه كسوف الشمس والقمرن أى: استتارهما بعارض مخصوص، والكسفة: القطعة، قطعة من السحاب والقطن ونحو ذلك، وجمعها: كسف(٤).

و(الودق) : المطر، قيل: ما يكون من خلال المطر، كأنه غبار وقد يعبر به عن المطر(٥) . و"المعنى: أنه يبسط السحاب فى المساء تارة، أى يجعله ممتدا عاما فى جو السماء، وهو الذى يظلم به الجو ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ أى تارة أخرى .. أى يجعله غمامات لأن حالة جعله كسفا غير حالة بسطه فى السماء"(٦).

---

(١) النهر الماد من البحر المحيط لأبىحيان ج٢، ص٦٩٢ .
(٢) اللسان مادة (ثور) ، والمفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ، ج١، ص١٠٩ .
(٣) المفردات للأصفهانى ج١، ص٥٩ .
(٤) السابق نفسه ج٢، ص٥٥٧ .
(٥) السابق نفسه ص٦٧١ .
(٦) تفسير التحرير والتنوير ج٢١، ص١٢٢ .

"فتعين أن يكون الجمع بينهما فى الذكر مرادا منه اختلاف أحوال السحاب ، والمقصود من هذا: إن اختلاف الحال آية على سعة القدرة"(١) و(كيف) هنا ليس معناها الاستفهام، فهى هنا "مجردة عن معنى الاستفهام ... لأنها نائبة عن المصدر، أى: يبسطه بسطا كيفيته يشاؤها الله"(٢).

وفى قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ ﴾ أسلوب قصر يدل على أن الله سبحانه هو المتصرف وحده فى هذه الأمور دون غيره، وهذا دليل على إبطال عبادة الأصناف التى لا تقدر على شىء.

قوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ ﴾ أى المطر يخرج من السحاب ﴿فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ ﴾ "يعنى: المطر ﴿يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ ﴾ يعنى: من بين السحاب"(٣).

والخطاب فى ﴿فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ ﴾ عام "خطاب لغير معين ، وهو كل من يتأتى منه سماع هذا وتتأتى منه رؤية الودق"(٤) والضمير فى: ﴿مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ ﴾ عائد على السحاب. "إذ هو المحدث عنه، وذكر الضمير لأن السحاب اسم جنس يجوز تذكيره وتأنيثه"(٥).

والتعبير بالمضارع بقوله تعالى فى الآية التى معنا: (يرسل، وتثير، ويبسطهن ويجعله) لاستحضار تلك الصور البديعة حتى كأن السامع يشاهدها ، مع الدلالة على تجدد حدوثها، والدلالة على استحقاقه وحده سبحانه بالعبادة، فهو الذى أوجد هذا النظام الفريد.

---

(١) السابق نفسه .
(٢) السابق نفسه .
(٣) جامع البيان لابن جرير الطبرى، ج٢١، ص٥٤، ط دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.
(٤) التحرير والتنوير، ج٢١، ص١٢٢ .
(٥) البحر المحيط لأبى حيان، ج٨، ص٣٩٩، طبعة دار الفكر.

ولما كان سبحانه قد سببت عن نزول المطر سرور العباد لما يشاهدونه من منافعه وأثره قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ أى "بلادهم وأراضيهم ... ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ فاجئوا الاستبشار بمجئ الخصب[١] فإنهم يفرحون بنزول المطر، ذلك من فضل الله ويدلنا على أن ذلك فضل منه سبحانه قوله تعالى: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ "أى الذين لم تزل عبادته واجبة عليهم، وهم جديرون بملازمة شكره والخضوع لأمره ، خاصا لهم بقدرته واختياره"[٢] وهنا فى الآية إيثار (إذا) على (إن) الشرطية.

وللفرق بين (إن) و(إذا) قالوا: "تختص (إذا) بدخولها على المتيقن، والمظنون والكثير الوقوع، بخلاف (إن) فإنها تستعمل فى المشكوك والموهوم والنادر"[٣].

فـ(إن) يؤتى بها فى الشرط المشكوك فيه، و(إذا) للشرط المتيقن، فتصدير الشرطية (بإذا) هنا، واستعمال الماضى بعده (أصاب) للدلالة على الوقوع، وللتنبيه على أن إيصال النعمة وعظيم فضله محقق الوقوع بدلالة الفعل الماضى، وتكرار (إذا) لتأكيد السرور والبشر. فإيصال النعمة والبشرى من الله تعالى لعباده محقق، فله المنة والفضل والحمد.

---

(١) روح المعانى للألوسى، ج٢١، ص٥٣ .
(٢) نظم الدرر للبقاعى، ج١٥، ص١٢٠ .
(٣) معترك الأقران فى إعجاز القرآن للسيوطى، ج١، ص٥٨٤، طبعة دار الفكر العربى، تحقيق على محمد البجاوى.

الخاتمة

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ ٠

وبعد

فإن أهمية هذا الموضوع ترجع إلى أن جمال الأسلوب يستمد من دقة ألفاظه، ومن ائتلاف الألفاظ مع المعانى والسياق، وفى ذلك تطبيق لنظرية النظم، فسر إعجاز القرآن الكريم يرجع إلى أسلوبه ونظمهن وما فى آياته من بلاغة عالية، فتركيب الألفاظ والجمل ووضعها الموضع المحدد لها أساس إعجاز القرآن الخالد، وقد وجدنا أسلوب التبشير بألفاظ سهلة لينة حينا، وبألفاظ عنيفة أليمة حينا آخر، وفى الحالتين جاءت آيات القرآن سلسلة منسابة إلى القلوب٠

وقد كثر التبشير فى القرآن الكريم بالجنة ونعيمها للمسلمين والمؤمنين والمحسنين والمتقين وغيرهم، وجاء التبشير بالعذاب فى القرآن الكريم على سبيل التهكم والسخرية بالكافرين والمنافقين والكانزين، كما وردت آيات تحمل تبشيرا بالرياح لتخاطب منكرى البعث والحساب وتأكيد ذلك نظرا لشدة إنكارهم٠

هذا وإنه يستحب للمبشر ببشرى سارة سعيدة أن يسجد شاكرا لله تعالى اقتداء بنبينا محمد ﷺ ، لقد استغرقت الجهد بقدر ما أعاننى الله تعالى لإنجاز هذا العمل، فإن كان صوابا فهو فضل من الله أسبغه على، فله الفضل سبحانه، وإن كان غير ذلك فإن التقصير من نفسى وحسبى أنى ما قصدت تقصيرا والله من وراء القصد وهو حسبى عليه توكلت وإليه أنيب٠

هذا وقد بدأت بحث (البلاغة القرىنية فى آيات التبشير) بمقدمة لبيان أهمية الموضوع، ودوافع بحثه، وكتبت تمهيدا عن بيان

معنى التبشير، وحصر لمادة التبشير فى القرآن الكريم كما جاءت فى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم٠

واتبعت ذلك ببيان بلاغة التبشير فى السياق القرآنى، فعرضت بالتحليل البلاغى للآيات التى ورد فيها تبشير المؤمنين بالجنات وبالقدم الصدق وبالأجر الكبير . كما عرضت لآيات التبشير الضمنى للمؤمنين وللآيات التى جاءت البشارة فيها للمسلمين والمتقين والصابرين ... الخ ٠

كما تعرضت بالتحليل البلاغى لآيات التبشير على سبيل التهكم كتبشير الكافرين والمنافقين والكانزين على سبيل التهكم بهم ٠

وفى مبحث أخير عرضت للآيات التى ورد التبشير فيها مرتبطا بالظواهر الكونية كالرياح ذلك لتأكيد الخطاب لمنكرى البعث والحساب نظرا لإنكارهم الشديد٠

هذه خلاصة موجزة لأهم ما ورد بالبحث من نقاط٠

وقد أوصلنى التطبيق البلاغى لآيات التبشير فى القرآن إلى نتائج لهذه الدراسة منها:

الإيجاز فهى تدل بأقصر لفظ على أوسع معنى٠

والإعجاز فى تناسق الكلمات وما تشعه من معان وصور بلاغية وإن لم يكن لهذا البحث من فائدة إلا أنه يحقق معنى النص القرآنى لكفى، فقد بين السر النسقى القرآنى وكشف النقاب عن إعجازه فى اختيار مكان الكلمة فى الأسلوب وملاءمتها للمعنى٠

وقد وقفت من خلال الدراسة التطبيقية لآيات التبشير على كثير من ألوان البلاغة من معان وبيان وبديع ٠

كشف هذا البحث عن ترابط جمل القرآن سواء عن طريق الفصل أو الوصل٠

وورد القصر فى الآيات وأكسب النظم ثباتا وقوة وجمالا ٠

ومن الأساليب الإنشائية التى وردت فى الآيات أسلوب الأمر وهو أكثرها٠

فقد ورد لفظ التبشير ومشتقاته فى القرآن الكريم أربعا وثمانين مرة ، وورد بلفظ فعل الأمر عشرين مرة، بشر: تسع عشرة مرة، وأبشروا: مرة واحدة ٠

ودل أسلوب الأمر للتبشير على معان بلاغية كالتذكير بالنعمة والامتنان والاهتمام والتحذير والوعد والإهانة وغيرها٠

ووضح البحث صور البيان فى آيات التبشير لتصوير المعانى عن طريق التشبيه والمجاز والكناية فكشف هذا البحث عن بلاغة هذه الصور البيانية وسر اختيار القرآن الكريم التعبير بواحد منها لتثبيت المعنى ٠

وبين البحث أن المحسنات المعنوية واللفظية فى آيات التبشير فى القرآن الكريم أكسبت الكلام رونقا وجمالا ، وثبت أصالة البديع فى القرآن سواء المعنوى واللفظى منه٠

وأنه يخرج من كونه حلى للمعنى أو اللفظ ، فهو لا يأتى بعد مطابقة الكلام لمقتضى الحال ولكن البديع يتبع المعنى فى آيات التبشير وفى القرآن الكريم ٠

فالمحسنات البديعية وإن كانت تحسن اللفظ إلا أن المزية راجعة إلى المعنى أيضا٠

تلك هى أهم نتائج البحث٠

ولعلى وفقت إلى تحقيق بعض ما أصبو إليه ٠

وعلى الله قصد السبيل ٠

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب،

المصادر والمراجع

١ – أثر النحاة فى البحث البلاغة د/ عبدالقادر حسين٠
٢ – إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب العزيز لابىالسعود٠
٣ – إعجاز القرآن للباقلانى٠
٤ – أساس البلاغة للزمخشرى٠
٥ – الإتقان للسيوطى٠
٦ – أنوار التنزيل تفسير البيضاوى٠
٧ – الانتصاف على الكشاف لابن المنير٠
٨ – الإيضاح للخطيب القزوينى٠
٩ – البرهان فى علوم القرىن للزركشى٠
١٠ – البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى د/ محمد ابوموسى٠
١١ – بلاغة القرآن والحديث د/ عبدالقادر حسين٠
١٢ – البحر المحيط لأبىحيان٠
١٣ – بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح للشيخ عبدالمتعال الصعيدى٠
١٤ – التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور٠
١٥ – تعبير الحق عن ذاته د/عزالدين على السيد٠
١٦ – التصوير الفنى فى القرىن ، سيد قطب٠
١٧ – تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة٠
١٨ – تفسير القرآن الكريم للشيخ محمود شلتوت٠
١٩ – الجامع لأحكام القرآن للقرطبى٠
٢٠ – جامع البيان للطبرى٠
٢١ – حاشية السيد الشريف على المطول٠
٢٢ – حاشية الشهاب الخفاجى على البيضاوى٠
٢٣ – دلائل الإعجاز للإمام عبدالقاهر الجرجانى٠

٢٤ - روح المعانى للآلوسى٠
٢٥ - صفاء الكلمة د/ عبدالفتاح لاشين٠
٢٦ - الطراز للعلوى٠
٢٧ - غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابورى٠
٢٨ - الفروق فى اللغة لأبىهلال العسكرى٠
٢٩ - فى علم المعانى د/ حمزة الدمرداش زغلول٠
٣٠ - فتح القدير للشوكانى٠
٣١ - الكشاف للزمخشرى٠
٣٢ - لسان العرب لابن منظور٠
٣٣ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم٠
٣٤ - معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس٠
٣٥ - المعجم الوسيط . مجمع اللغة العربية٠
٣٦ - محاسن التأويل لمحمد جمال الدين القاسمى٠
٣٧ - معانى التراكيب د/ عبدالفتاح لاشين٠
٣٨ - المحرر الوجيز لابن عطية٠
٣٩ - المثل السائر لابن الأثير٠
٤٠ - المفردات فى غريب القرآن للراغب الاصفهانى٠
٤١ - مغنى اللبيب لابن هشام الأنصارى٠
٤٢ - مفتاح العلوم للسكاكى٠
٤٣ - من أسرار التعبير القرآنى د/ محمد أبوموسى٠
٤٤ - لطائف الإشارات للإمام القشيرى٠
٤٥ - النبأ العظيم د/ محمد عبدالله دراز٠
٤٦ - نظم الدرر للبقاعى٠